
أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei Al-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
معجم الخطاب القرآني
في الدعاء
تأليف
الدكتور مصطفى عليان
الإصدار
الرابع والسبعون
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

مُعْجَمُ الخِطَابِ القُرْآنِيِّ
فِي الدُّعَاءِ



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية



تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي

الطبعة الأولى

الإصدار الرابع والسبعون

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفاة ١٣٠٩٧ الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:

www.alwaei.com

الإشراف العام:

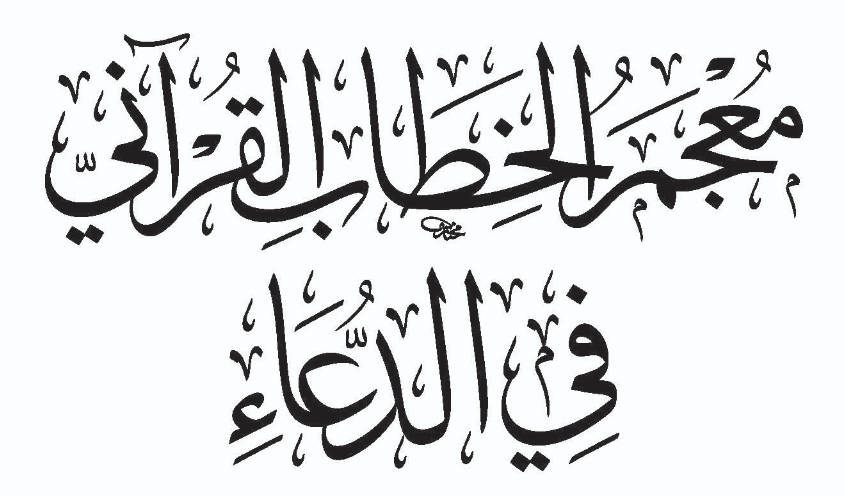
رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي



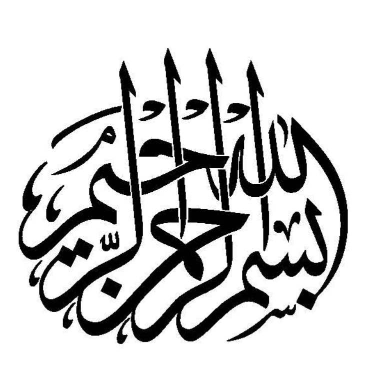


وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية



تأليف
الدكتور مصطفى عليان

الإصدار الرابع والسبعون
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى حفيدي مصطفى بن صفوان:

اللَّهُمَّ أكرمه بنور الفهم

وافتح عليه بمعرفة العلم

وحسِّن أخلاقه بالحلم

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

تصدير

بقلم رئيس تحرير مجلّة «الوعي الإسلامي»

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، وأرسل رسوله بالهدى والبلاغ والتبيان، وقيَّضَ من عباده من نظم الفقه بأفصح لسان، أحمده حمداً يملأ الميزان.

وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له كل يوم هو في شان، وأشهد أن سيِّدنا ونبيِّنا محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أمّا بعد:

فإنّ العلم والثقافة الشرعيّة ميدانٌ خصبٌ لكلِّ متعلِّم؛ إذا أراد أن يستزيد من الإحاطة بلغته، ودينه، ومبادئ أمَّته.

وحتَّى ينتشر هذا الوعي ويعمّ، كان لا بد من توفير المواد العلميّة اللَّازمة له.

ومن أهمِّ تلك الموادِّ: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة بنّاءة جادّة.

ولأجل تواصل المثقَّفين شرقًا وغربًا، وتنامي الشعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثقافي بين شعوب الأمّتين العربيّة والإسلامية، كانت فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التراثية، وطباعة الرسائل العلميّة، أولويَّةً عمليَّة في مجلَّة «**الوعي الإسلاميّ**»، فهي بذلك تسعى لزرع الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة، بشتَّى صنوفها، في الناشئة والمبتدئين، وفي الصغار والكبار، على حدٍّ سواء.

وقد جَمعتْ مجلّة «**الوعي الإسلاميّ**» طاقاتها وإمكاناتها العلميّة والمادِّيَّة لتحقيق هذا الهدف السامي، فتَيسَّر لها بفضل الله تعالى إخراج عدد ليس بالقليل من هذه الكتب والرسائل، وكان لها نصيب وافر من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل الكويت وخارجها، وذلك لما تميَّزت به هذه الإصدارات من أصالةٍ وقوّةٍ ووضوحِ منهج، ومراعاةٍ لمصلحة المثقَّف، وحاجته العلميّة.

ومن هذه الإصدارات النافعة، كتاب:

«معجم الخطاب القرآني في الدعاء»

تأليف الدكتور مصطفى عليّان

ومجلّة «**الوعي الإسلاميّ**» إذ تقدّم هذا الإصدار لقرّائها، فإنّها تتوجّه بخالص الشكر والتقدير للدكتور الفاضل على إذنه الكريم بطباعة الكتاب، نسأل الله له التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، يوازي نِعَمه، ويكافئ مزيده، وصلَّى الله وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن استنَّ بسُنَّته، واستنار بهديه إلى يوم الدين.

وبعد، فإن هذا البحث ينطلق من فرضية: أن آيات الدعاء في القرآن الكريم، على الرغم من توزعها في سُوَرِه، تشكِّل نصّاً متكاملاً في عناصره، متآلفاً متناسقاً في بنائيته، ذا خصائص أسلوبية، ومعالم جمالية في الألفاظ والجُمل والمشاهد.

وقد رأيت أن أفرد هذا البحث بالمعجم اللغوي للدعاء، الذي يمثِّل الوحدة الأولى في بنائية النص، على أن أُتبعه بحول الله وعونه بما يحقق تمام عناصر هذا الخطاب وكماله، باستيعاب الجملة والنسق.

وعالجت معجم ألفاظ الخطاب القرآني في الدعاء من خلال ثلاثة حقول لغوية:

الأول: ألفاظ العقيدة والتوحيد، وهي: ربّ، ربّنا، اللَّهُمَّ.

الثاني: ألفاظ الخطاب والمحاورة، وهي: قال، دعا، نادى.

الثالث: ألفاظ الطلب، وهي: الأمر، والطلب بصيغة النهي، والتمني.

إذ يسعى البحث إلى الكشف عن الهوية الخاصة لكلِّ لفظٍ وصيغةٍ مما سبق ذكره، بالوقوف على الدلالة المعجمية المباشرة، والدلالة اللزومية الحافة ذات الإيحاء والإشارة، فضلاً عن الإبانة عن أوجه الشَّبه والتآلف، والدلالة على ظواهر التباين والاختلاف وما إلى ذلك من علائق خاصة، تسهم في تناسق الحقل كالتواتر والتكرار، والتقابل بالمطابقة والتضاد، والتضام بالاشتمال والتضمين، من حيث الخصوص والعموم والجزئية والكلية. إذ إن شبكة من هذه الظواهر والعلائق والروابط توثق عرى الاتصال، وتعزز التوصيل بين جُمل الدعاء المتباعدة في سُوَر النص القرآني وآياته.

واللفظة القرآنية لا يتحقق لها هذا التآلف والانسجام مع غيرها، أو الاتساق بنظائرها إلَّا من خلال نسق الاية ونظم العلائق التركيبية فيها، وسياق الآيات واتجاه الدلالة

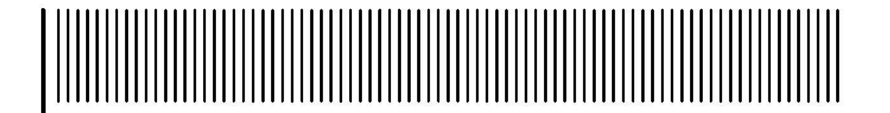
لها، إذ إن الكلمات كما يقول عبد القاهر الجرجاني: «لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر»(١).

أسأل الله العليم الحكيم أن أكون أُلْهِمْتُ الصواب فيما تناولت، وهُدِيْتُ إلى السداد والرشاد فيما فسَّرت وعلَّلت، وألَّا أكون قد زللت فيما اجتهدت، أو ضللت فيما تدبرت، ومن قبل ومن بعد، أنا فقير إلى عفو الله وغفرانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الدكتور مصطفى عليان مصطفى عليان

عمَّان في ٢٦ ذي القعدة ١٤٢٧هـ
الموافق ١٧ كانون أول ٢٠٠٦م

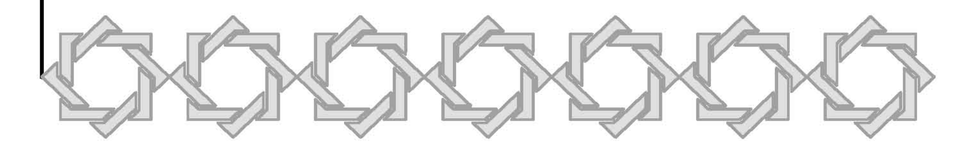
(١) دلائل الإعجاز: ص٣٢، ٣٣.



أولاً

ألفاظ العقيدة والتوحيد

- ربّ
- ربنا
- اللَّهُمّ





يتصدَّر الرب ﷻ (رب/ ربنا) بُنيَة الخطاب القرآني في دعاء الأنبياء، والملائكة حملة العرش، والأولياء والصالحين.

والربُّ الذي هو الله ﷻ، هو رب كل شيء؛ أي: مالكه، يُطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيِّم والمنعم، ولا يُطلق غير مضاف إلا على الله ﷻ، وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل: رب كذا[1].

وفي اشتقاق هذا الاسم ما يحمل صفتين عظيمتين دالَّتين على الله ﷻ:

إحداهما: صفة فعل على أساس أنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى «مدبر لخلقه ومربيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾. فسمى بنت الزوجة ربيبة، لتربية الزوج لها، فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل»[2].

وثانيتهما: صفة ذات، ويكون اشتقاقه من ربَّ الشيء: مَلَكه، «وربّ كل شيء: مالكه ومستحقه، وقيل: صاحبه،

---

(١) لسان العرب: مادة رب، ١/ ٣٨٤، ط بولاق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٣٧.

ويقال: فلان ربّ هذا الشيء؛ أي: ملكه، وكل من ملك شيئاً فهو ربه»[1]. فالرب على هذا المعنى هو المالك والسيد «يكون صفة ذات»[2].

والرب الذي افتتح به الخطاب القرآني في الدعاء يحمل عند أهل العلم انفتاحاً على دلالات عديدة، فربنا جلَّ ثناؤه هو «السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر»[3]، وهو المدبر والجابر والقائم على إصلاح شؤون خلقه[4]، والمعبود والثابت والمصلح والخالق في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وهو الدالّ على الإحسان والعطف والشفقة والتدبير والسيادة والاختصاص والولاية[5]. وزاد بعضهم «الصاحب»، قال أبو جعفر الرعيني: «وكلها تصلح في الآية إلا الثابت والصاحب، وفي السيد خلاف»[6].

---

(١) اللسان: مادة رب، ١/ ٣٨٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٣٧.
(٣) جامع البيان: ١/ ٤٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٣٧.
(٥) نظم الدرر: ١٧/ ٥٠٠.
(٦) تحفة الأقران: ص٤٢.

لكن السيادة للرب ﷻ تستقيم «إذا جعلنا العالمين في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ معناه: المميزين، دون الجماد»؛ لأنه لا يصلح أن يقال: سيد الشجر والجبل ونحوهما، كما يقال: سيد الناس[1]. وزاد المفضل الضبي أن الربّ يُطلق في اللغة على المدبر والقيِّم والمنعم فضلاً عن المالك والسيد والمربي[2].

وتجتمع هذه الدلالات في قول الراغب: «الرب هو المتكفل بمصلحة المخلوقات»[3]. ولاجتماع هذه المعاني والدلالات في هذا الاسم، قال بعض العلماء: إن هذا «اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الدَّاعين به، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر سورة آل عمران وسورة إبراهيم وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصِّلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال»[4].

ونازع أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ) في أن الرب هو اسم الله الأعظم؛ إذ لم يعده من أسماء الله

---

(١) شأن الدعاء: ص١٠٠.

(٢) اللسان: مادة رب، ١/ ٣٨٤، ط بولاق.

(٣) مفردات القرآن: ص١٨٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٣٧.

الحسنى فيما أحصاه وحده[1]، على الرغم من قوله: إن الله «أشهر أسماء الرب وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء»[2]؛ بدعوى أنها لم تُرْوَ من طريق شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة الذي حدَّثه به غير واحد من أصحابه، منهم محمد بن الحسين بن عاصم[3].

وأشار إلى أن بعض أسماء الله الحسنى، ومنها الرب والمنّان والكافي وغيرها، مروية غير أنها ليست بالقوية؛ إذ يقول: «وقد رُويت هذه الأسماء من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة بزيادات ليست في خبر الأعرج عن أبي هريرة. أخبرنا ابن الأعرابي قال: حدثنا سليمان بن الربيع النَّهدي، قال: حدثنا خالد بن مخلد القطواني، قال: حدثنا عبد العزيز بن الحصين، قال: حدثنا أيوب وهشام بن حسان، عن ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»، فذكرها، وعدَّ منها: الرب، الحنان، المنان، الكافي... إلا أن رواية عبد العزيز بن الحصين ليس بالقوي في الحديث، قال محمد بن إسماعيل البخاري: عبد العزيز بن الحصين بن

---

(١) انظر: شأن الدعاء ٣٠ ـ ٩٧.

(٢) شأن الدعاء: ص٣٠.

(٣) شأن الدعاء: ص٩٨.

الترجمان ليس بالقوي عندهم، غير أن أكثر هذه الأسماء مذكورة في القرآن»[1].

وحديث أبي هريرة يرجح أن الله هو اسم الله الأعظم، فعنه أنه قال: سألت خليلي أبا القاسم رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: «**يا أبا هريرة! عليك بآخر سورة الحشر فأكْثِر قراءتها**»، فأعدت عليه فأعاد علي، فأعدت عليه فأعاد علي. وقال جابر بن زياد: إن اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية[2]. وقد رويت بعض الأحاديث النبوية عن فضل قراءة أواخر سورة الحشر، منها ما أخرجه أحمد والدارمي والترمذي وحسَّنه والطبراني وابن الضريس والبيهقي في «الشعب» عن معقل بن يسار، عن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلُّون عليه حتى يُمسي، وإنْ مات ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة**»[3].

---

(١) شأن الدعاء: ص٩٨، ٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٤٩.

(٣) قال الترمذي بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. فتح القدير: ٥/ ٢٤١.

وذهب الرازي أبعد من ذلك حين جعل (القيُّوم) هو اسم الله الأعظم بناءً على تحليل دلالي؛ إذ يقول: «كونه قيُّوماً يقتضي أن يكون قائماً بذاته، وأن يكون مقوِّماً لغيره، وكونه قائماً بذاته يقتضي الوحدة، بمعنى نفي الكثرة في حقيقته، وذلك يقتضي الوحدة بمعنى نفي الضدّ والند، ويقتضي نفي التحيُّز، وبواسطته يقتضي نفي الجهة، وأيضاً كونه قيوماً بمعنى كونه مقوِّماً لغيره يقتضي حدوث كل ما سواه جسماً كان أو روحاً، عقلاً أو نفساً، ويقتضي استناد الكل إليه وانتهاء جملة الأسباب والمسبّبات إليه، وذلك يوجب القول بالقضاء والقدر. فظهر أن هذين اللفظين (الحي القيوم) كالمحيطين بجميع مباحث العلم الإلٰهي، فلا جرم بلغت هذه الآية في الشَّرف إلى المقصد الأقصى واستوجب أن يكون هو الاسم الأعظم من أسماء الله تعالى»[1].

ويترجح اسم الجلالة (الله) ﷻ أنه الاسم الأعظم، أو الدال المركزي في أسماء الله وصفاته، بالوقوف على ظاهرة أسلوبية ذات تردد وتكرار في الخطاب القرآني، وهي أن ذكر الله ﷻ يتفرد في أسماء الله الحسنى بأنه يأتي اسماً ظاهراً تتوالى عليه الأسماء والصفات الأُخر، نعتاً له،

---

(١) التفسير الكبير: ٧/ ٤.

أو خبراً بعد خبر عنه، أو بدلاً منه، أو استئنافاً وبياناً له، جمعاً لصفات الإلٰهية، وتأكيداً لنعوت الربوبية. بتلاحم وترابط بياني قائم على الفصل دون الوصل، واستقلال واجتماع، وتراتب وترتيب، فيه التفات إلى مقام التعظيم، ورعاية لسياق الكمالات، التي هي مع كثرتها، كما يقول أبو السعود، راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم. وقد جاء ذلك في أكثر من موضع في كتاب الله ﷻ.

ففي فاتحة الكتاب يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تضافرت أربع صفات في الدلالة على أن (الله) ﷻ يستحق الحمد، ويختص به، فالحمد: مبتدأ، ولله: خبره، و(رب): صفة لاسم الله تعالى، ومضاف إلى العالمين، و(الرحمٰن الرحيم): صفتان كالرب، و(مالك): من قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ صفة أيضاً، ومضاف إلى (يوم)، و(يوم) مضاف إلى (الدين).

وتمتد مركزية اسم الجلالة (الله) من مجمع الثناء على الله إلى مجمع الدعاء، إذ إن في (إياك) ضمير اسم الله تعالى، وهو ضمير يقع موقع الاسم، إذا كان الاسم منصوباً، معنى ذلك: أنك لو ذكرت اسم الله مكانه لقلت:

(الله نعبد) وكذلك حكم (إياك نستعين)[1].

فهذه صفات لله وصف بها نفسه، واختص بها ألوهيته دون سائر ما يعبد من دونه، وبعضها صفات ذات، وبعضها صفات فعل، وفي بعضها ترهيب (رب العالمين)، وفي بعضها ترغيب (الرحمٰن الرحيم)، وفي بعضها اختصاص وتفرد (مالك يوم الدين).

وتتعزز الرؤية السابقة في مركزية اسم الجلالة (الله) في أسماء الله الحسنى في آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فهذه الآية أشرف آية في القرآن الكريم كما يقول ابن عباس[2]، وقد جاء حضور اسم الجلالة (الله) ﷻ فيها ظاهراً ومستكناً ست عشرة مرة أو سبع عشرة مرة، وزاد

---

(١) دلائل الإعجاز: تحقيق محمود شاكر، ص٤٥٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٧١، وجاء في فضلها أحاديث كثيرة، فهي أفضل آية، وسيدة آي القرآن، وأعظم آية، وسنام القرآن.

القرطبي ذلك فجعلها ثمان عشرة مرة[1]. ومرجع الخلاف في العدد هو الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾. قال أبو جعفر النحاس: «جائز أن تكون الهاء لله ﷻ، وجائز أن تكون للكرسي»[2].

وأيّاً كان الأمر في ذلك فهذه «الصفات كلها أسماء الله تعالى»[3]، وقد انتظمت في عشر جُمَل مستقلة[4]، جاء بعضها مباشراً (الحي القيوم العلي العظيم) وجاء الآخر منها بلازم الوصف ومقتضى الدلالة، فقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الواحد المتفرد، وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: المهيمن أو المالك، وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: ذو الكبرياء (المتكبر)، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: العليم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ أي: المحيط، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: القادر أو الواسع المُلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: الحفيظ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٧١.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢٦٦.

(٣) الكشاف: ١/ ٣٠٢.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣٠.

وتجدر الإشارة إلى قول ابن كثير في هذا المقام: «الأجود فيها (في هذه الصفات) طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكيُّف ولا تشبيه»[1].

وهذه الأسماء والصفات توالت نعتاً لاسم الجلالة (الله) ﷻ، أو بدلاً، أو خبراً بعد خبر، أو تأكيداً.

قال القرطبي: «(الله): مبتدأ، و(لا إلٰه): مبتدأ ثان، وخبره محذوف تقديره: معبود أو موجود، و(إلا هو): بدل من موضع لا إلٰه. وقيل: (الله لا إلٰه إلا هو): ابتداء وخبر»[2].

قال ابن عاشور: «وجملة (لا إلٰه إلا هو) خبر أول عن اسم الجلالة»[3].

و(الحي القيوم): نعت لله ﷻ، وإن شئت كان بدلاً من «هو»، وإن شئت كان خبراً بعد خبر، وإن شئت على إضمار مبتدأ[4].

قال الزمخشري: «قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٧٠، ٢٧١.
(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ١٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٧١، وانظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٧.

هو تأكيد للقيوم»[1].

ثم تتوالى الأسماء والصفات في جُمَل مستقلة دون وصل أو عطف، كما توالت في سورة الحمد، قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف ترتيب الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ قلت: ما فيها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه، والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف، لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها؛ فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه، غير ساه عنه، والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره، والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى، والخامسة: لسعة علمه وتعلُّقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره»[2].

يحسنُ القول: إن للشرف في هذه الآية (آية الكرسي) دلالات أسلوبية عديدة جرى تحليلها ووصفها في بحث آخر، عسى أن يكون ظهوره قريباً.

وفي أواخر سورة الحشر موضع آخر تتعزز به الرؤية؛ أن اسم الجلالة (الله) دال مركزي في أسماء الله وصفاته.

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف: ١/ ٣٠١، ٣٠٢.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

«والآيات الثلاث توحيد الإلٰهية وتوحيد الأسماء والصفات وتنزيه الله سبحانه وتعالى مع إقامة الأدلة عليها، وقد اجتمعت معاً؛ لأنه لا يتم إحداه إلا بالآخرين، ليتم الكمال لله تعالى، والكمالات مع كثرتها كما يقول أبو السعود راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم»(١).

وكان مقتضى الظاهر في الآيات الثلاث أن يقتصر على الضمير (هو) دون ذكر اسم الجلالة (الله)؛ «لأن المقصود الإخبار عن الضمير بـ(الذي لا إلٰه إلا هو) وبما بعده من الصفات العلية، فالجمع بين الضمير وما يساوي، معادة اعتبار بأن اسم الجلالة يجمع صفات الكمال؛ لأن أصله (الإلٰه)، ومدلول (الإلٰه) يقتضي جميع صفات الكمال»(٢).

---

(١) أضواء البيان: ٨/٦٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٨/١١٨.

والضمير الذي ابتدأت به الآيات الثلاث سواء أكان ضمير الغيبة أم ضمير الشأن، فقد توالت الأسماء والصفات وتراتبت على اسم الجلالة من غير عطف، شأنها في ذلك شأن أسلوب آية الكرسي، حيث اتحد البيان بالمبين اتحاد التحام واتساق.

فقد جاء الخبر بعد الخبر عن اسم الجلالة محذوفاً مكرراً في قوله تعالى: (لا إلٰه إلا هو) بتقدير: موجود، وقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، إذ الجار والمجرور متعلق بخبر مقدم للمبتدأ (الأسماء).

وجاء الخبر بعد الخبر عن اسم الجلالة مذكوراً، في قوله: (هو الله) الذي تكرر ثلاث مرات، وقوله: (عالم الغيب): خبر ثانٍ للمبتدأ (هو)، وقوله: (هو الرحمٰن)، وجملة: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ في محل رفع خبر آخر للمبتدأ (هو)، وجملة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في محل رفع خبر آخر للمبتدأ هو، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ التي هي في محل نصب حال.

وتتابع النعت بعد النعت على اسم الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي تكرر في الآية الثانية وصفاً لتفرُّده، وفي قوله: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ والصفات التالية: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾،

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾ الذي هو نعت لاسم الجلالة، وكذلك الصفات الأُخر المتوالية ﴿ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾.

وبالاستئناف المؤكد لمضمون ما سبقه أو بيانه، المتكرر بداعية أن المقام مقام تعظيم، وهو من مقامات التكرير، وفيه اهتمام بصفة الوحدانية[١]، كان ورود الجُمل التالية: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ في الآية الثانية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ في الآية الثالثة.

على أن الباحث إذ عدَّ الضمير في الآية الثالثة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ ضمير شأن، لا ضمير غيبة، فالجملة بعده خبر عنه، وجملة: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾ تفيد قصراً بطريق تعريف جزئي الجملة؛ أي: هو الخالق لا شركاؤهم[٢].

وغنيٌّ عن البيان أن أسماء الله وصفاته في الآيات الثلاث تحمل دلالات وإشارات في بنائها اللغوي (الصرفي) وتقديم بعضها على بعض، كتقدُّم ما هو متقدم في الوجود ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وعلى ذلك تأتي سيادة تصدير الدعاء بالرب ﷻ في القرآن، واطّراده وتواتره في خطاب الأنبياء وحملة العرش

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٢٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٢٣

والأولياء الصالحين، حكاية حال أو توجيه عبادة ومقال، تأكيداً لتوحيد الربوبية بأبعادها وصفاتها ودلالاتها من الخلق والسيادة والعبادة وغير ذلك من التكفّل بمصالح الموجودات، وصولاً بالناس إلى الاعتقاد الجازم بأن الله هو الربّ المتفرِّد بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، رب جميع الخلائق، وخالق جميع الأشياء، خاصة كون المشركين «معتقدين ربوبيتين؛ ربوبية الله وربوبية آلهتهم»[1].

وقد حرص الأنبياء عليهم السلام في دعوة أقوامهم على توحيد الربوبية والإلٰهية، فهود عليه السلام يقول لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦].

وعيسى عليه السلام يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران: ٥١، ومريم: ٣٦].

ويوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: ٣٧].

ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى: ١٠].

---

(١) الكشاف: ١/ ٩٠.

ويقول تعالى مخاطباً محمد ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠].

ومما يرشح هذا الفهم أن الله في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] «خصَّ خلقه لهم من بين سائر صفاته؛ إذ كانت العرب مقرَّة بأن الله خلقها»[(١)]، وكان أمره ﷻ بالتعبد ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ مصدراً بخطاب الناس والفرق جميعاً؛ لأن المراد به «ربكم على الحقيقة»، وذلك على العكس إذا خُصَّ المشركون بخطاب (ربكم) «فالمراد به اسم يشترك فيه رب السماوات والأرض والآلهة التي كانوا يسمُّونها أرباباً»[(٢)].

ومن هنا كان جهر المشركين وإقرار الكافرين بالربوبية وتوحيدها في الخلق والإماتة والإحياء والبعث والحشر والحساب؛ إذ إنهم يوم تقلب وجوههم في النار، يكون التحوُّل الإيجابي إلى الله؛ فيُصَدِّرون خطابهم لله بـ«ربنا» مفرداً

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٢٦.

(٢) الكشاف: ١/ ٩٠.

ومكرراً، حيث يقول تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨]، ويقول تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١١ ـ ١٢].

وفي حمى صدارة لفظ الجلالة «الربّ» لجملة الدعاء في القرآن، انحسر الدعاء بـ(اللَّهُمَّ) إلى مواضع محدودة معدودة في خمس آيات كريمة، غير أنها جامعة لنماذج من الخطاب الإنساني في الدعاء المصدر بالربوبية، شاملة لاتجاهاته البنائية والأسلوبية؛ إذ فيها من دعاء الأنبياء دعاء عيسى عليه السلام في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤]. ومن دعاء أهل الجنة؛ الأولياء: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]. ومن دعاء أهل الأرض الصالحين الذي وجههم إليه عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٦]. وجاء دعاء أبي جهل

أو الحارث بن النضر نموذجاً للكافرين بالألوهية: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

وينتظم الدعاء لهذه النماذج الإنسانية أربعة أساليب، هي من أساليب الدعاء المصدر بذكر الربوبية، وهي:

أولاً: البوح بالطلب المباشر، من خلال فعل الأمر المتحول عن دلالته الوضعية الأصلية في طلب تحقيق الفعل على وجه الاستعلاء إلى التمني والرجاء.

وثانياً: الاستغناء بالتنزيه والحمد والثناء عن الطلب.

وثالثاً: التوجيه التعليمي المصدر بالقول: «قل اللَّهُمَّ».

ورابعاً: تكرار النداء بعد النداء.

واللافت للدارس في هذه الأساليب أن عيسى عليه السلام عمد إلى توليفة توفيقية، جمع فيها بين الصيغتين الأساسيتين في صدارة بناء الدعاء بقوله: (اللَّهُمَّ ربنا)، وهو تحوُّل في تركيب الجملة عن إفراد الخطاب بلفظ الجلالة «الرب» إلى الجمع بين الإلٰه والرب معاً؛ لأنه طلب، ومسألة فيها ما يخرق العادة، وقد كان مثل هذا جائزاً في زمن الأنبياء، وجاء في القرآن ما يكشف عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ

لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ إذ لمّا رأى زكريا خارق العادة استحكم طمعه في إجابة دعوته ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨](١).

إلَّا أنَّ هذا الجمع فيه نداءان؛ (اللَّهُمَّ) نداء أول، و(ربنا) نداء ثان في رأي سيبويه، الذي لا يجيز أن يكون النداء الثاني نعتاً للأول(٢). وفي تكرار النداء ما يعزز الطلب بما لا يحققه النعت؛ إذ يفضي تكرار النداء إلى الإلحاح في الخطاب توسُّلاً واستعطافاً بالتأكيد والتطريب، في حين إن القول بالوصفية لا يتعدى تبعية الصفة للموصوف في توحد الثناء وتعزيزه؛ على أن حال عيسى عليه السلام مع الحواريين في هذا الموقف يستوعبه النداء وحركة الإلحاح فيه، أكثر من الصفة وثبات الثناء بها؛ إذ رغب الحواريون أن يكون علمهم باستطاعة الله علم معاينة ونظر، فضلاً عن علمهم به علم دلالة وخبر(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٨٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣٦٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣٦٥.

وهذا الأسلوب الجامع في النداء والدعاء بين صفات الأُلوهية وخصائص الربوبية، جاء نظيره في دعاء آدم وحواء: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩]، على تقدير أن الضمير في (دعوا) عائد إليهما أو إلى عامَّة الخلق من بعد آدم من الزوجين[1].

وقد يحمل تقديم الإلٰهية (اللَّهُمَّ) في النداء والدعاء بها على الربوبية (ربّنا) في دعاء عيسى عليه السلام، إشعاراً أو يقيناً بجلالها ومقامها وأهمية افتتاح الدعاء بها، على الرغم من اطِّراد صدارة الربوبية في دعاء الأنبياء والملائكة والأولياء من عباد الله الصالحين، وقلّة اتخاذهم الأُلوهية مفتتحاً لخطابهم في الاتصال بالله عز وجل.

ولا يهون من هذا الفهم ما جاء من تقديم الربوبية على الإلٰهية في الدعاء التوجيهي الذي أمر الله به المستعيذ من الشيطان بالاستجارة بالمتصف بالصفات الثلاث: الربوبية والمُلك والإلٰهية، فقد تقدَّمت فيه الربوبية على الإلٰهية في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٣]؛ لأن الإلٰهية جاءت في هذا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

الدعاء لا على طريق النداء بعد النداء، بل بأسلوب البيان للربوبية، وتخليصها بالإيضاح من المشترك الدلالي، فهي غاية البيان، يقول الزمخشري: «فإن قلت: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ ما هما من ربّ الناس؟ قلت: هما عطف بيان؛ كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق. بيَّن بملك الناس، ثم زيد بياناً بإلٰه الناس؛ لأنه قد يقال لغيره: رب الناس؛ كقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقد يقال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، وأما ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ فخاص لا شركة فيه، فجُعل غاية للبيان»[1].

وكان الخطاب النبوي الشريف لمحمد ﷺ في الدعاء يتصدر تركيبه «اللَّهُمَّ» غالباً دون «ربنا» التي جاءت فيه على قلة[2]، تحقيقاً للتوجيه الإلٰهي له في سورة الزمر: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ [الزمر: ٤٦]، وإن جمع بينهما عليه الصلاة والسلام في بناء دعائه أحياناً، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كان

(١) الكشاف: ٤/ ٨٢٣.

(٢) انظر: الخطاب النبوي الشريف في الدعاء، د. مصطفى عليان ضمن دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى الدكتور فضل عباس، ط دار الرازي، عمّان ٢٠٠٣، ص٦٦٧ ـ ٦٩٣.

النبي ﷺ يستفتح صلاته إذا قام: «**اللَّهُمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

ويستوي الدعاء بصدارة لفظ «رب» ولفظ «اللَّهُمَّ» من حيث البناء اللغوي والإيقاع الصوتي والفقه الدلالي، إذ جاء حذف ياء النداء في كلٍّ منهما ضرورة وتناسباً مقامياً لجلال الله ﷻ.

فعلى الرغم من أن اسم الله ﷻ لا ينادى إلَّا بالياء، حُذِفَت هذه الياء من جملة الدعاء المصدّرة بلفظ «رب» في الآيات القرآنية إلَّا في موضعين هما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٨]، ولا يجتمع النداء بالياء أيضاً مع جملة الدعاء المصدرة بـ (اللَّهُمَّ) إلَّا في الضرورة النادرة(٢)؛ إذ قد يدخل عليها الحرف عند الكوفيين(٣).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: باب صلاة النبي ﷺ دعائه بالليل ٦/ ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) منار السالك إلى أوضح المسالك: ١/ ١٣١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٣٥.

ولحذف الياء في الدعاء ولذكرها ارتباط بمستوى خطاب المتضرع لله ﷻ والاتصال به؛ ذلك أن النداء في أصل دلالته هو فاتحة التواصل بين طرفين، فهو يفتح قناة الاتصال بين المخاطب أو المتلفظ والسامع[1]؛ إذ إن الياء من شأنها التنبيه كما يقول سيبويه: «وأما (يا) فتنبيه. ألا تراها في النداء وفي الأمر، كأنك تنبّه المأمور»[2]. ويأتي حذفها في الدعاء تأكيداً على جلال الله وتنزيهاً له عن التنبيه، وتحقيقاً لقربه من عباده الذي يترسخ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، الذي نزل جواباً لسؤال الأعرابي: «أقريبٌ ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه»[3].

وخطاب النداء في هذه البنائية القائمة على الحذف حائد عن وظيفة التنبيه المنكرة في حق الله ﷻ، منزاح عن أصل الدلالة، لكنه منخرط في وظيفة جديدة هي حضور الغائب ومخاطبته عن قرب. وقد اطردت هذه البنائية على هذا الحال من الحذف في الدعاء في القرآن الكريم، إلا أنها جاءت على أصل بنية جملة النداء من غير انزياح في قوله

(١) دروس في البلاغة: الأزهر زناد، ص١٣٩.
(٢) الكتاب: ٤/ ٢٢٤.
(٣) الكشاف: ١/ ٢٢٩.

تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠]، الذي قيل: إن محمَّداً ﷺ «إنما يقوله يوم القيامة؛ أي: هجروا القرآن وهجروني وكذّبوني»[١].

ومعنى ذلك: أن الخطاب النبوي في هذا الدعاء لا يتجافى عن دلالة النداء في الياء التي هي «لنداء البعيد حقيقة أو حكماً، وقد ينادى بها القريب توكيداً»[٢]، إلَّا أنه غاير الخطاب المطرد في دعاء الله ﷻ، قصداً إلى تبعيد القريب منزلة، وتعظيم المخاطب مكانة؛ لأن استخدام الأداة يكشف عن المسافة الفاصلة في مسار الخطاب بين المنادي والمنادى، والداعي والمدعوّ. قال البقاعي: «وعبَّر بأداة البعد هضماً لنفسه، مبالغة في التضرُّع»[٣].

وفي هذا الكلام أيضاً «معنى الشكاية، وشدة التحرق، وعظيم التحزن؛ كما يشير إليه (يا) التي للبعد، على خلاف ما جرت به العادة في نداء الخواص الذي هو أخصَّهم»[٤].

وبمثل هذه المبالغة في الضراعة وانكسار النفس علَّل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٧.
(٢) مغني اللبيب: ص٣٧٣.
(٣) نظم الدرر: ١٣/ ٣٧٦.
(٤) نظم الدرر: ١٣/ ٣٧٧.

البقاعي أيضاً النداء في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [الزخرف: ٨٨] بقوله: «﴿وَقِيلِهِۦ﴾ الذي صار في ملازمته وعدم اتكاله حالاً من الأحوال الدالَّة على وجه قيله وانكسار نفسه، بما دلَّت عليه كسرة المصدر وياؤه المجانسة لها... والتعبير بقوله: ﴿يَٰرَبِّ﴾ دالٌّ على ذلك، بما تفيده ياء الدالة على بعد، أو تقديره: والرب الدال على الإحسان والعطف والشفقة والتدبير والسيادة والاختصاص والولاية، وذلك على غير العادة في دعاء المقرَّبين، فإنها جارية في القرآن بإسقاط أداة النداء»[(١)].

ويستوي الدعاء أيضاً المصدَّر بلفظ «رَبِّ» و«اللَّهُمَّ» من حيث البُنية الصوتية والدلالية؛ إذ إن التوازن الصوتي بين الشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، ظاهرة واضحة في كلٍّ منهما، لأن التشكيل الصوتي للنداء بـ «رَبِّ» مؤلَّف من الراء، وهو حرف لذقي مكرر مجهور[(٢)]، وهو متوسط بين الشدة والرخاوة، ومفخم مرقق[(٣)]، والباء حرف شفوي انفجاري (شديد) مجهور مرقق[(٤)].

(١) نظم الدرر: ١٧/ ٥٠٠.
(٢) علم اللغة ـ الأصوات: د. كمال بشر ص١٢٩.
(٣) الأصوات اللغوية: د. عبد القادر عبد الجليل ص١٥٢.
(٤) الأصوات اللغوية: ص١٥٦.

على أن في تكرار صوت الراء وقلقلة الباء ما يضفي ترجيعاً وترديداً يحقق للمنادي التطريب بعد الامتاع، والتلذذ بعد الاستئناس في الخطاب، فضلاً عن أن الجمع بين الجهر والرخاوة، والتفخيم والترقيق يعكس صورة للحالة الصوتية المتوازنة للطالب الداعي التي أمر الله ﷻ الامتثال بها في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ويعطي التحليل الصوتي للفظ (اللَّهُمَّ) جوانب من حسن الإيقاع والدلالة من ثلاث نواح:

أولها: الرقة؛ إذ إن الهمزة واللام والميم من الأصوات المرققة عند اللغويين المحدثين(١)، وإن اكتسبت اللام بعض صفة التفخيم بتأثير الحركة السابقة.

ثانيها: الجمع بين الهمس والجهر، والتوسط بين الشدّة والرخاوة، فالهمزة وإن كانت صوتاً شديداً، إلَّا أنه واقع بين الهمس والجهر(٢). واللام صوت متوسط بين الشدة والرخاوة، حيث إنه مفخم ومرقق، والهاء صوت رخو مهموس مرقق، والميم متوسطة بين الشدة والرخاوة(٣). وهذا

---

(١) الأصوات اللغوية: ص١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) الأصوات اللغوية: ص١٩٣.

(٣) الأصوات اللغوية: ص١٥٧.

التناسب الجامع بين الأصوات ليناً وشدة، وهمساً وجهراً، فيه صورة من ضراعة الداعي وخيفته، ورغبته ورهبته.

ثالثها: الترديد والترجيع، وقد جاء ذلك بتكرار اللام والميم، الذي منح التماثل في كل منهما إيقاعاً وتنغيماً في منطق الطالب وصوته.

أما الفقه الدلالي فمهما يلتمس الدارس الممحّص من ملامح دلالية في تصدير الدعاء باسمي الجلالة (الرب/ الله)، تظل إصابة الفارق المميز بينهما أمراً عسراً معجزاً، ولعلّ في احتجابه عن الإدراك الظاهر أحد بواعث الإحصاء الذي جاء في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو هريرة: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر**»[1]. خاصة ما تقاربت دلالته كما هو الحال في أسماء الله الحسنى الأُخر (الرحمٰن/ الرحيم) و(الحكيم/ العليم) و(الخبير/ العليم) و(العظيم/ الجليل) و(القوي/ المتين)

(١) الحديث متفق عليه، فهو في صحيح البخاري: في كتاب الدعوات، رقم ٦٤١٠، وفي صحيح مسلم: في كتاب الدعوات، رقم ٦٧٥٠.

ـ للإحصاء وجوه، أحدها: العد، وثانيها: الطاقة، وثالثها: العقل والمعرفة، ورابعها: استيفاؤها بقراءة القرآن. انظر: شأن الدعاء ص٢٦ ـ ٢٩.

و(الواحد/ الأحد) و(القادر/ المقتدر) و(الرؤوف/ الرحيم).

فأسماء الله الحسنى تتفرَّد بالدلالة أحياناً ويجتمع اثنان فيها معاً أحياناً أُخر، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة، وأضرب مثالاً لاجتماع «الرب» و«الله» في نسقٍ واحد، وهو قول الله ﷻ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

فقد جاءت مادة «افترى» في هذا الموضع وغيره، مقرونة باطراد بـ «على الله» (افترى على الله كذباً)، غير أن ما عداها من الأحوال في الآية جاءت الدلالة مشتركة في الإسناد إلى «الله» و«الرب». فالنجاة المسندة إلى الله (نجانا الله منها) جاء طلبها مختصّاً بالربّ ﷻ في دعاء لوط عليه السلام ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء: ١٦٩]، ودعاء موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١].

وسعة العلم في كل شيء التي هي خاصية ربنا ﷻ في الآية ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ تأتي صفة للإلٰهية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، فضلاً عن تردّدها في كتاب الله

بصيغة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ كثيراً[1].

واختصاص الله بالتقديم في التوكل ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لم تتبدل صفة الاختصاص هذه بالرب بأسلوب التقديم أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٩]، وقوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

وجاء الفتح مسنداً إلى الله ﷻ دون الربّ ﷻ في عدد من الآيات ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦﴾ [البقرة: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

والمشيئة التي أسندت إلى الله والرب ﷻ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩] كان نظيرها في قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]، وما عدا ذلك جاء إفرادها بالإسناد إلى الله ﷻ كثيراً في حقل الهداية والرزق وإيتاء الملك والحكمة والمغفرة والنصر والخلق وغير ذلك. أما تعليق المشيئة بالرب ﷻ فقد بدا

---

(١) انظر: سورة البقرة، آية ٢٤٧، ٢٦١، ٢٦٨، آل عمران: آية ٧٣، المائدة: آية ٥٤، النور: آية ٣٢.

معدوداً في مواضع ثلاثة، ومحدوداً في حقلي الرزق والتدبير، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ٣٠، وسبأ: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].

لا مناص من القول إن محاولة تفريد اسم الجلالة «الله» أو «الرب» في الدعاء بخصوصية تامّة دون انفتاح على معاني الآخر، ليس بمكنة الباحث أن يقطع القول به؛ لأن نسق توحد المعنى قد يتواتر كثيراً، لكن عدولاً عنه يأتي به الإسناد والتركيب أحياناً، فالسياق غالباً ما يفتح الدلالة على معاني التوحيد، تأكيداً للمفهوم، وتعزيزاً للخاصية، وتيسيراً على المتوجه بالدعاء؛ إذ القاعدة المآل في ذلك هي: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ إذ تمتلك دلالة كل من الاسمين القدرة ذاتها على الثناء والاستعانة وتحقيق الإجابة.

وعلى ذلك، فإنَّ سيادة تصدر الدعاء القرآني باسم الجلالة (رب/ ربنا) كثيراً، وقلة ابتدائه بـ (اللَّهُمَّ)، ليست من باب ما يقال في هذا المجال إنَّ هذه دلالة سائدة وتلك

دلالة معزولة، ولا من باب القول بأساسية الأولى وهامشية الثانية؛ لأن التبادلية بينهما في التداول تجعل لكلٍّ منهما في مرتكز فاعلية الدعاء أهمية خاصة. ونستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ إذ يقول الأزهري جامعاً بين الاسمين وموحداً لهما في الدلالة والشأن: «﴿تَبَارَكَ﴾: تعالى وتعاظم وارتفع، وقيل: إن باسمه يتبرك ويتيمن»[(١)].

بقي أن نشير إلى أن الرب أُضيف للمنادي المفرد كثيراً، (ربّ) وللمنادي الجمع (ربنا) أكثر، وتشير إضافة الرب للفرد إلى خصوص الدعاء بمطالب الذات ومنزلته التعبُّدية عند الله ﷻ، وتفيد الإضافة إلى الجماعة إلى شمول المطلوب للعموم من المؤمنين، فضلاً عن التشريف للكل والقرب[(٢)]؛ أي: قُرْب المُنادى، قال أبو حيان في خطاب إبراهيم ﵇: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٣.
(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ٢٠٢.

﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦]: «وناداه بلفظ الرب مضافاً إليه؛ لِمَا في ذلك من تلطُّف السؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل وإجابة ضراعته»(١). واجتمع الخصوص والعموم في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: ١١٢]، فالإفراد كان خاصاً؛ إذ فوَّض الرسول ﷺ أمر المكذبين لدعوته إلى ربه ﷻ مستعجلاً بذلك ما يستحقونه في الدنيا، فكانت الإجابة بهزيمة قريش ببدر، ثم جاء الاستئناف بجملة ابتدائية (ربنا مبتدأ وخبره الرحمٰن، والمستعان خبر آخر...) بقول الله سبحانه: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ تتميماً لتلك الحكاية(٢)، وتعليماً للمؤمنين للاستعانة بالله الرحمٰن في مواجهة أكاذيب الكافرين وأقاويلهم، وفي ذلك من الإشارة إلى التوازنية والواقعية الشمولية ما لا يخفى.

على أن خطاب الكافرين لله ﷻ جاء كثيراً بالجمع (ربنا) دون الإفراد (رب) في حال مواجهة الحق ومضائق الحساب، فتوحَّدت مقولاتهم وذرائعهم في قولهم: ﴿وَهُمۡ

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/ ٥٥٤.

(٢) فتح القدير: ٣/ ٤٨٥.

﴿...يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقولهم: ﴿...رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨]، وقولهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص: ٦١].

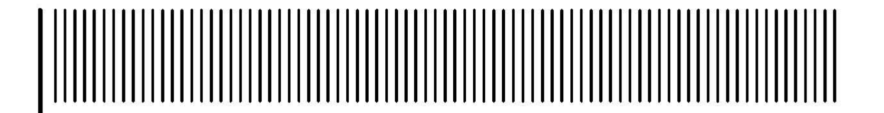
وغابت رغائب الكفار الخاصة عن الذكر والسرد في خطابهم لله ﷿؛ لأنه لا منزلة لهم ولا كرامة عند الله ﷿، فلا إجابة لمطالبهم إلا بالتسفيه والتوبيخ. ولا يُستدرَك على ذلك في هذا المجال بما جاء من خطاب لديهم ظاهره الإفراد (رب) في حكاية قولهم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: ١٢٥]؛ إذ إنه نموذج للكفار، فمرجع هذا القول عام بما قدم به للخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤]، وما ختم به أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٧].

وخطاب إبليس لربه جارٍ في هذا السياق، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، فهذا الطلب أو السؤال «لم يكن عن ثقته بمنزلته عند الله، وأنه أهل أن يُجاب له دعاء، ولكن سأل الله تأخير عذابه زيادة في بلائه... وفي كلام الله تعالى له قولان:

أحدهما: كلَّمه على لسان رسوله، والثاني: كلَّمه تغليظاً في الوعيد لا على وجه التكرُمة والتقريب»[1].

❁ ❁ ❁

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٧.

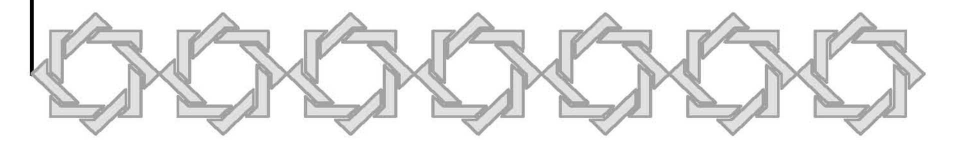


ثانياً

ألفاظ الخطاب والمحاورة

- قال
- نادى
- دعا[1]

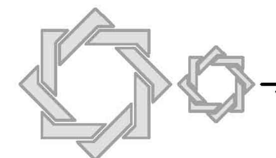
(١) جاء هذا الترتيب تنازلياً للأكثر حضوراً فالأقل ذكراً، وليس أبجدياً.





وإذا كان افتتاح الدعاء مركوزاً باسم الله الأعظم (رب/ اللَّهُمَّ)، ومجرداً من أداة النداء (يا) دلالة على قرب المنادى من المنادي، واتصاله به دون حاجز أو حائل، فإن الخطاب القرآني في الدعاء جاء افتتاحه متواتراً بلفظ «قال» غالباً، وأحياناً بلفظ «نادى»، وأحياناً أُخر بلفظ «دعا» تبليغاً وإرشاداً وتوجيهاً، وتصويراً لحالة الداعي وموقفه في حالة الشدّة والكرب.





«قال» وآلياتها الأسلوبية

وهي أكثر المفردات تراتباً في هذا الحقل وتواتراً في نصوص الدعاء في القرآن الكريم؛ إذ جاءت بآليات أسلوبية ثلاث:

❑ الأولى: الآلية الإخبارية:

وهي ذات خاصية توثيقية في رواية الدعاء وحمله عن السابقين من الأنبياء والأمم من الشفاهية إلى الكتابية، أي: من التداول بالسماع وما يحف به من مرافقات سالبة من التغيير والتبديل إلى التناول بالكتابة المقروءة وما يختص بها من دلالات موجبه تبليغاً وتفقهاً وتوجيهاً. قصداً إلى غاية عقدية في نقل صورة العروة الوثقى للإنسان بخالقه، في اللجوء إليه، والتوكل عليه، وتعليق الأمر في توجيه الحياة الخاصة والعامة به؛ حيث القول يعني: «الكلام على الترتيب، وهو عند المحقق كل لفظ قال به اللسان تاماً كان أو ناقصاً... قال سيبويه: واعلم أن (قلت) في كلام العرب إنما وقعت على أن تحكي بها ما كان كلاماً لا قولاً؛ يعني:

بالكلام الجمل؛ كقولك: زيد منطلق وقام زيدٌ، ويعني بالقول: الألفاظ المفردة التي يبني الكلام منها؛ كزيد من قولك: زيد منطلق، فأما تجوّزهم في تسميتهم الاعتقادات والآراء قولاً؛ فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول، أو ما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول سُمِّيت قولاً؛ إذ كانت سبباً له، وكان القول دليلاً عليها، كما يسمَّى القول باسم غيره إذا كان ملابساً له، وكان القول دليلاً عليه»[1]. وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

- ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يونس: ٨٥].

وهذه الغاية التوثيقية عززت بفواعل إسنادية ومرجعية عديدة، ففيها المفرد المذكر والمفردة المؤنثة، وفيها المثنى والجمع، تأكيداً لشمول هذه العبادة للخلق جميعاً، في عالم الغيب والشهادة، وتسجيلاً للمطالب الإنسانية التي شملتها الأدعية التالية:

---

(١) اللسان: مادة قول، ١٤/ ٩٠.

ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦].

ـ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

وتحمل هذه الآلية الإخبارية صفة سردية في مناقلة الخطاب، وتوجيه حركة القص، فالدعاء المصدر بالقول جاء ممتزجاً بالأحداث والقص؛ كما في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا
لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾
[القصص: ١٥ ـ ٢٤].

فالدعاء المصدر بالقول جزء مكين في انعطاف السرد وحركته، فهو مصاحب لتنامي الأحداث، فضلاً عن أنه رابط بين عالم الغيب والشهادة في مختلف الأحوال النفسية، إقراراً بالذنب ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ وتجديداً للاستقامة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾، وطلباً للأمن والنجاة ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾، وتمنياً للإرشاد ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾، وإظهاراً للضراعة وكشفاً للذلّة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

زِدْ على ذلك أن تعاقب القول في نسق الأحداث منح سياق القول والدعاء ترتيباً وتراتباً عمودياً وأفقياً، إذ جاء

الدعاء مواكباً لحركة كل حدث مفصلي في قصة موسى عليه السلام، فكان طلب المغفرة مع ظلم النفس بقتل الذي هو من عدوه، ومع حصول المغفرة، كان العهد على القوامة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ ومع الخوف والترقُّب في خروجه من المدينة جاء الدعاء بطلب النجاة، وفي الإحساس بالطمأنينة كان الحمد بإظهار الفقر إلى رعاية الله بحفظه وتسديده.

ولصدارة القول (قال) في الدعاء جانب عقدي، ملموس في الجهر بالاعتقاد بأن الله هو المدبر المتصرف بأحوال الخلق؛ ذلك أن «الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول سُمِّيت قولاً؛ إذ كانت سبباً له وكان القول دليلاً عليه»[1]، وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٨]، الذي قال فيه قتادة: «هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه»[2]؛ إذ ذهب الزمخشري في توجيه قراءة الجر والنصب في (قيله) على القسم، راغباً عن توجيه النحاة للجر بالعطف على لفظ الساعة ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، والنصب على

---

(١) اللسان: مادة قول، ١٤/ ٩٠.

(٢) فتح القدير: ٤/ ٦٤٩.

تقدير: وعنده علم الساعة ويعلم قيله، أو بالنصب على المصدرية: قال قيله، يقول الزمخشري: «والذي قالوه ليس بقوي في المعنى، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً، ومع تنافر النظم، وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك، ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ جواب القسم؛ كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب، أو قيله يا رب قسمي إن هؤلاء قوم لا يؤمنون... والضمير في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ لرسول الله ﷺ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه»[1]، ولذلك جاء قول الله عز وجل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ تهديداً شديداً ووعيداً عظيماً منه عز وجل[2]، وتسلية لرسوله ﷺ[3].

ومثل ذلك يقال عن تعظيم الله لدعاء المؤمنين الموثق بالقول والاستمرارية؛ إذ جعله سبباً في تغليظ القول للكافرين: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ

(١) الكشاف: ٤/٢٦٨.
(٢) فتح القدير: ٤/ ٦٩٤.
(٣) الكشاف: ٤/٢٦٨.

تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ
عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ
مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ
﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾
[المؤمنون: ١٠٣ ـ ١١١].

❑ الثانية: الآلية الطلبية:

وجاء ترددادها ظاهرة لغوية في مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق: ١].

وتصدُّر الدعاء بهذه الصيغة الأمرية جاء محدوداً قياساً بالصيغة التوثيقية (قال)، لكنها ذات خصوصية في البناء والدلالة والنسق.

وبنية الخطاب الصوتي في هذا الإنشاء الطلبي (قل) تتناسب مع وظيفة التنبيه التي يقوم بها الأمر دلالياً، وتتناسق ووسيلة التنشيط التي يحدثها في المتلقي؛ إذ إن القاف حرف مجهور انفجاري شديد، فضلاً عن أنه من حروف القلقلة(١)،

---

(١) علم اللغة العام ـ الأصوات: د. كمال بشر، ص١١٠.

واللام صوت مجهور، يتردَّد بين الشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، لكنه اكتسب بعض التفخيم بمجاورته لحرف القاف[1].

وتتميز بنية الدعاء في الإنشاء الطلبي بالإيجاز والتكثيف؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ إذ يغلب على مضمون الطلب فيها أن يكون أحادياً؛ ليكون خفيفاً على اللسان بعيداً عن النسيان.

وفعل الأمر (قل) يعطي مؤشراً إما على استقطاب سؤال غائب شبيهاً بآخر حاضر؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وإما مراعاة حال مقدر ملحوظ في أحوال العباد؛ يجول السؤال عنه في مسارب النفس والخاطر، من مثل: ماذا نقول في دعائنا؟ وكيف نسأل الله في تضرُّعنا؟ يعزز ذلك ما جاء في تساؤل قوم: «أقريبٌ منا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟» فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦][2].

---

(١) الأصوات اللغوية: د. عبد القادر عبد الجليل، ص١٧٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/٣٠٨.

وفي كِلَا الحالين، فإن فعل الأمر في مثل هذا الدعاء ينفتح على التوجيه والتعليم والوعظ من غايات التربية العقدية التي المدار فيها على ديمومة ذكر الله وإظهار العبودية له، وذلك فيما كان الأمر الطلبي مقيداً فيه بمطلوب معين أو مرغوب عنه محدد؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣ ـ ٩٤]. قال القرطبي في تناوله للآية بالتفسير: «علَّمه (ربه) ما يدعو به؛ أي: قل يا رب إن أريتني ما يوعدون من العذاب ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: في نزول العذاب بهم، بل أخرجني منهم... وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب، ومع هذا أمره الربّ بهذا الدعاء والسؤال؛ ليعظم أجره، وليكون في كل الأوقات ذاكراً لربِّه تعالى»[1].

ولا يبتعد الأمر الطلبي عن هذه الغاية التوجيهية فيما كان محرَّراً من التحديد، مطلقاً من تحقيق فعل على وجه

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٤٧.

الاستعلاء؛ كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فمضمون الأمر في هذا الدعاء محذوف، توسعة على الداعي، وإطلاقاً للرغائب وفتحاً للآمال، وقد أدرك عليه الصلاة والسلام هذه التوسعة في مطالب العباد، فقال لمعاذ رضي الله عنه مستدركاً ما حذف في مضمون الأمر: «**أتحب يا معاذ أن يقضي الله دينك؟**» قلت: نعم، قال: «**قل كل يوم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ... وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي من تشاء، وتمنع منهما ما تشاء، اقضِ عني ديني، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأدَّاه عنك**»[(١)].

ويبقى فعل الأمر (قل) بانفتاحه على التوجيه الإرشادي التعليمي، ذا اختزان لطاقة دلالية موحية، فيها الحث على الحركة وسؤال التغيير والتبديل، لِما هو كائن في الحياة ولما يكون في القادم منها، فهي ليست من جنس الطلب الإلٰهي في مثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٢.

﴿٣٠﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٢]، حيث الحركة في هذا الطلب (سيروا... فانظروا) فكرية تأملية تبدأ في الداخل النفسي ولا تتجاوزه إلى الخارج، فالغاية العقدية التعبدية في الطلب (قل اللهم) (وقل سيروا) ذات اتجاهين مختلفين في الحركة والسكون، والجهر والصمت، والداخل والخارج أو الابتداء والانتهاء.

وقد استلهم الرسول ﷺ مضمون توجيه الأمر الإلٰهي في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٦]، فكان يستفتح صلاته إذا قام بقوله: «**اللَّهُمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل** ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ **اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: بسنده عن عائشة رضي الله عنها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، ٦/٥٦ ـ ٥٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٢٩م. وانظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٦٥.

❐ الثالثة: الآلية الوصفية:

ويأتي الدعاء في هذه الآلية مميزاً في بنيته ودلالته أيضاً؛ إذ مهد له بصيغة المضارع «يقولون»، الذي جاء مسنداً إلى فاعلية الجماعة (الواو)، التي هي عائد مؤكد للاسم الموصول «الذين» الدال حصراً في الدعاء على مدلوله المعين: (المتقون/ المؤمنون)، فضلاً عن أن صيغة (يقولون) ذات اتصالية لزومية بلفظ الذين أحياناً؛ إذ إنها صلته المكملة له، وذات استقلال وتفرد بالوصف أو دلالة على الحال أحياناً أُخر. وهذه البنائية المتماسكة الأركان تطرد في آيات الدعاء في هذه الآلية؛ من ذلك:

- ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ. . . ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٥ ـ ١٦].

قال الزمخشري: «﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجر صفة للمتقين أو العباد»[(١)].

- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٤٣.

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٦].

ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

فعباد الرحمٰن هم صالحو عباد الله سبحانه، وقيل: هم العشرة المبشَّرون بالجنة[1]، من صفاتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥]، فعباد الرحمٰن مبتدأ جاء خبره في آخر السورة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾، وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها، ذهب إلى ذلك الزجاج، واختاره القرطبي بقوله: «وهو أحسن ما قيل فيه»[2].

ولا يبتعد عن بنية الوصف هذه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣]؛ إذ تتحول صيغة (يقولون) إلى (القائلين) بفعل

---

(١) الكشاف: ٣/٢٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٨٣.

حالية الموضع، الذي يؤدي وظيفة بيانية لحالة القسيسين والرهبان ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]، وهذه الصيغة (يقولون) ليست فضلة كما هو شأن الحال ونظائره من المنصوبات، بل هي جزء مكين في إنشاء التركيب والسياق، وإتمام الوصفية، وتشكيل الصورية لهم.

وبمثل ذلك جاءت الإشارة إلى تحول التركيب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ نصب في موضع الحال؛ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾»[1].

وتفضي البنية السطحية (الذين... يقولون) التي تتصدَّر دعاء المؤمنين خاصة (المتقين/ عباد الرحمٰن/ أهل الصفة/ الصحابة/ التابعين) إلى وحدة من الدلالات اللزومية وعددٍ من المعاني العميقة، فالفعل المضارع (يقولون) ذو خاصية سلوكية في الاستمرار والديمومة، وميزة فعلية زمانية في

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٣٣.

الحركة والسرد، وبارتباطه بالاسم الموصول (الذين. . . يقولون) يمنح الجملة صفة الاسمية بما تحمله من ثبات المعنى وتمكّنه وقرار تداوله دون انقطاع.

وقد منحت خصوصية الاستمرارية في القول والثبات عليها، حياداً للدعاء القرآني في هذا المجال عن التوثيقية التي جاء بها الدعاء المصدر بـ (قال/ قالا/ قالوا)، وإطلاقاً للتاريخية السببية التي قالت بها المرجعية التفسيرية، فـ (الذين اتقوا) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ عامّة جاء تخصيصها بالبدل أو النعت في قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٥ ـ ١٦]، قال الشوكاني: «والصابرين وما بعده نعت للموصول على تقدير كونه بدلاً، أو منصوباً على المدح وعلى تقدير كونه خبراً يكون الصابرين وما بعده منصوباً على المدح»[(١)].

وكذلك يتجاوز الدارس بخصوصية الاستمرارية في الدعاء والثبات عليها، تقييد ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ بأنها «نزلت في

---

(١) فتح القدير: ١/ ٣٦٠.

العشرة المبشرين بالجنة»[1]. أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا﴾ [الحشر: ١٠]، فهي ليست حصراً بالتابعين، بل هي «عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، فيتجافى بتنكير (فريق من عبادي) عن حدود التعيين والتقييد في قولهم: «قيل: هم الصحابة، وقيل: هم أهل الصُّفَّة»[3]، وقول مجاهد: «هم بلال وخباب وصهيب، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين، كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم»[4].

ولعل من معززات الاستمرارية في القول والثبات على الدعاء بها في كل زمان وحين، أن هذه الصيغة (يقولون) تظل ألسنة المؤمنين رطبة بذكرها وتردادها لا في الحياة الدنيا، بل في الآخرة، حين يمضون على الصراط ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٩٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٣٢.
(٣) الكشاف: ٣/ ٢٠٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٥٤.

﴿أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: ٨]، فيكون هذا «دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين»[(١)].

ولعل من مرجحات خصوصية (يقولون) في تصدير الدعاء بها، أن الله ﷻ منح الدعاء بها تفضيلاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢]؛ إذ نهى الله ﷻ عن طلب الدنيا؛ لأن «العرب في الجاهلية كانت تدعو في مصالح الدنيا فقط، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم، ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضاً إذا قصر دعواته في الدنيا»[(٢)].

غير أنه اجتمع في دعاء المسلمين والمؤمنين هذا خصائص بيانية عدّة:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٠١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٤٣٢.

منها: حضور طلب الدنيا في دعاء المؤمنين يحمل إشارة إلى واقعية التصور الإسلامي لنفسية الإنسان وميوله نحو الدنيا، شأنه في ذلك شأن غيره من الناس.

ومنها: تنكير «حسنة» التي تنفتح دلالتها في الدنيا على سبعة أقوال جمعها ابن الجوزي «أحدها: المرأة، والثاني: العبادة، والثالث: العلم مع العبادة، والرابع: المال، والخامس: العافية، والسادس: الرزق الواسع، والسابع: النعمة»[1]. وتنفتح دلالاتها في الآخرة على عدد من نِعم غامرة كما يرى ابن كثير: «وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة»[2].

ومنها: أن دعاء المؤمنين قائم على مقابلة توازنية بين نصيب الدنيا وحظ الآخرة، وهي ذات إيقاع سطحي (خارجي) بحسن التقسيم البديع، المتوازن بناء جمل المطالب، وذات توقيع أو تطريب ذي حركة عميقة (داخلي) مرتبط

---

(١) زاد المسير: ١/ ٢١٦. وانظر: انفتاح الدلالة على أكثر من ذلك عند أبي حيان، تفسير البحر المحيط: ٢/ ١١٣.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٢.

بوعي الداعي، يتمثل في حركة التصعيد المعنوي والزماني والمكاني للدعاء (حسنة في الدنيا ← حسنة في الآخرة ← دخول الجنة دون مرور بالنار).

ومنها: أن طلب النجاة من النار جاء بأسلوب الطباق الخفي (إيهام التناسب) المتصل بالمعنى دون اللفظ؛ إذ بين «الحسنة» و«عذاب النار» تعلق سببي أو لزومي؛ لأن الوقاية من النار مسببة عن الحسنة، والحسنة قد تكون الجنة، أو هي من أسبابها أو توابعها ولوازمها، فجاء البيان عن الحاجة خفياً حيياً مناسباً بين المطالب، أو لعل اتباع طلب دخول الجنة بسؤال الوقاية من النار لتكون الحسنة شاملة تامة، قصداً في «ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشفاعة، ويحتمل أن يكون دعاءً مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين»[1].

ومنها: أن الله ﷿ سمَّى تحول دعاء المؤمنين (القول/ يقول) كسباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ «لأنه من الأعمال» والأعمال موصوفة بالكسب، بما كسبت أيديكم»[2]. ولما كان القول عملاً جاء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٤٣٣.

(٢) الكشاف: ١/ ٢٤٨.

التعبير عنه بصيغة المضارع (يقول) تنبيهاً على الاجتهاد والدأب والحركة والاستمرار في اتخاذه منهج اتصال بالله.

ولهذه الخصائص ولغيرها، كانت هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمَّت الدنيا والآخرة[1] بأدق لفظ، وأوجز عبارة، ولهذه الخصائص أيضاً وغيرها وردت السُّنَّة بالترغيب في الدعاء بها، فقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ بها فيما روى الشيخان في «الصحيحين» عن أنس، وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها (الآية)، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه[2]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بالبيت وهو يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ ما له هجيري (الدأب والعادة) وغيرها، وكان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم بها[3].

بقي أن أشير إلى أن بعض آيات الدعاء في القرآن جاءت محررة من القول بآلياته الثلاث (الإخبارية والطلبية والوصفية)، إلا أن سياقها يترجح فيه الدعاء بآلية منها؛ كما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٤٣٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٤٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٤٣٣.

في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فقد ذهب القرطبي إلى أن هذا الدعاء تعليمي؛ أي: أنه مصدر بمحذوف تقديره: قولوا؛ لأن هذا خرج «مخرج التعليم للخلق كيف يدعون. رُوي عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة، قال: آمين. قال ابن عطية: هذا يظن به أنه رواه عن النبي ﷺ، فإن كان كذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هنالك دعاء، وهنا دعاء فحسن»[1].

لكن الطاهر بن عاشور التفت إلى السياق الرابط للدعاء بالآيات السابقة له، فأدرك فيه الوصفية فضلاً عن التعليمية؛ فقال: «يجوز أن يكون هذا الدعاء محكياً من قول المؤمنين الذين قالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بأن اتَّبعوا القبول والرضا، فتوجهوا إلى طلب الجزاء ومناجاة الله تعالى، واختيار هذا حكاية عنهم في آخر السورة تكملة للإيذان بانتهائها. ويجوز

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٤٣٣.

أن يكون تلقيناً من جانب الله أن يقولوا هذا الدعاء مثل ما لقنوا التحميد في سورة الفاتحة، ويكون التقدير: قولوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ إلى آخر السورة؛ إن الله بعد أن قرَّر لهم أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها لقنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع. والمراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلا ينسخ ذلك من جراء غضب الله كما غضب على الذين قال فيهم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]»[(١)].

وبمراعاة النسق والسياق في الآيات ربط بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨] بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، فاتصال الآيتين حمل أبا جعفر النحاس على تقدير (يقولون هذا) حكاية عن الراسخين أنهم يقولون هذا في دعائهم، ويجوز أن يكون الكلام منقطعاً على معنى: قل

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

يا محمد[1]؛ على أن التقدير الأول أرجح لاتصال الكلام، خلافاً للطاهر بن عاشور الذي يراه تعليمياً، فهو «دعاء عُلِّمه النبي ﷺ، تعليماً للأُمة؛ لأن الموقع المحكي موقع عبرة ومثار لهواجس الخوف من سوء المصير إلى حال الذين في قلوبهم زيغ، فما هم إلا من عقلاء البشر؛ لا تفاوت بينهم وبين الراسخين في الإنسانية، ولا في سلامة العقول والمشاعر»[2].

وبمثل ذلك جاء تقدير (يقولون) تصديراً للدعاء، في أواخر سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤]. فقد قال النحاس: «أي:

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٢٥٥، والجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٩ ـ ٢٠.
(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ١٦٩.

يقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً؛ فحذف يقولون»[١]. ونظر الزمخشري في سياق الآيات، فأدرك الصلة بين ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ بتقدير حال محذوف فقال: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادة القول؛ أي: يقولون ذلك، وهو في محل الحال، بمعنى يتفكرون قائلين»[٢]، وعلل الطاهر بن عاشور الجملة الحالية بقوله: «لأن هذا الكلام (يتفكرون قائلين) أُريد به حكاية عن قولهم، بدليل ما بعده من الدعاء»[٣].

والراجح في الدعاء في الآيات من سورة البقرة وآل عمران تقدير محذوف «يقولون»؛ لأن الدعاء بها تعزز فيه الأحاديث المرويّة عن رسول الله ﷺ صفة الاستمرار والثبات عليه، فقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[٤]. قال القرطبي: «روى مسلم عن ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أنزل الله عليَّ آيتين من كنوز الجنة ختم بهما سورة البقرة،**

(١) معاني القرآن: ١/ ٥٢٥.
(٢) الكشاف: ١/ ٤٥٤.
(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ١٩٧.
(٤) صحيح مسلم، بشرح النووي: ٦/ ٩٢.

كتبهما الرحمٰن بيده قبل أن يخلق الخلق بألف عام، مَنْ قرأهما بعد العشاء مرتين أجزأتاه من قيام الليل ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى آخر البقرة»»[1].

وكان عليه الصلاة والسلام يلتزم الدعاء بالآيات العشر من أواخر سورة آل عمران إذا قام الليل، فقد روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه بات ليلة عند ميمونة أُم المؤمنين، وهي خالته، قال: فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام فصلى...»[2].

وكذلك يقال في استمرارية الدعاء بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ⁽٨⁾﴾، فقد روى الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال: قلت لأُم سلمة: يا أُم المؤمنين! ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «**يا**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٤٣٣.

(٢) صحيح مسلم، بشرح النووي: ٦/ ٤٥ ـ ٤٦.

مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك!»، فقلت: يا رسول الله! ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال: «**يا أُم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**»، فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، قال: حديث حسن»[1].

وبهذه الآية كان يقرأ خليفة رسول الله أبو بكر الصديق في الركعة الثالثة من صلاة المغرب قنوتاً، فقد رُوي عن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلَّى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ في الركعتين الأوليين بأُم القرآن وسورة من قصار المفصل، ثم قام في الثالثة فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأُم القرآن وهذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[2].

قال العلماء: قراءته بهذه الآية ضرب من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر الردة»[3].

---

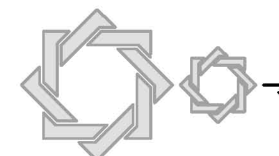
(١) صحيح الترمذي: حديث رقم ٣٥٢٢. وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٠.

(٢) الحديث في المجموع، شرح المهذب، النووي: ٣/ ٣٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٠.

وهكذا، فإن تصدير الدعاء في القرآن بالقول (قال/ قل/ يقولون) ذو دلالة أساسية في بنية الخطاب، متمكنة بعدد من الدلالات الإخبارية التوثيقية والطلبية والتعليمية التوجيهية، والاستمرارية التعبدية بديمومة وثبات، سائدة حضوراً في صدارة الدعاء وغياباً مقدراً، شاملة ما يعرض للإنسان في مختلف الأزمان، الماضي والحاضر والمستقبل، وفي عالم الغيب والشهادة، وهي بعد ذلك تحمل اعتقاداً صريحاً؛ إذ من شأن المعتقد أن يفصح عن معتقده بالقول مباشراً.





«نادى» ومستوياتها الصوتية

أما (نادى) فهو لفظ يدل في بنائه الصوتي على حروف جهر (النون والدال) ومد (الألف والياء) وهي تعكس دلالته في الدعاء من حيث اللين والمد والتطويل في الصوت؛ إذ النداء هو الدعاء، وهو في حديث الأذان: «**هو أندى منك صوتاً**» على مستويات صوتية ثلاث:

الأول: أندى صوتاً؛ أي: أرفع وأعلى، ورجل رفيع الصوت؛ أي: جهيره. والجهر: شدّة الصوت، ورجل جهوري الصوت: عالي الصوت ورفيعه.

الثاني: أندى صوتاً؛ أي: أحسن وأعذب.

الثالث: أندى صوتاً؛ أي: أبعد مذهباً، بُعده بُعد مدى الصوت[1].

وقد جاء الدعاء القرآني شاملاً تصوير هذه المستويات من خلال لفظ (نادى)، **فمن المستوى الأول**: النداء بالصوت

---

(١) اللسان: مادة ندى، ٢٠/١٨٧ ـ ١٨٨، مادة رفع، ٩/ ٤٩٠.

الرفيع الجهير الشديد، قول نوح عليه السلام: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢].

والصورة الصوتية في هذا الدعاء مولدها (نادى) الذي يعزز اندغام المقال والحال والسياق صوتها الجهير الشديد، فمن المقال جاء قوله تعالى: ﴿...وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢]. فالياء حرف وضع في أصله لنداء البعيد، وهي صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وقد ينادى به القريب إن سها أو غفل عدولاً وانزياحاً عن الأصل؛ على أن ابن نوح كان على بعض البعد من السفينة[(١)].

ومن الحال كان قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾، والمَعْزِل: مَفْعل، من عزله: إذا نحاه وأبعده، وكان ابن نوح في مكان عزل فيه نفسه عن المؤمنين[(٢)].

وأما السياق فمنه ظاهر مركوز في اطمئنان نوح إلى وعد الله له وللمؤمنين، بأن الغرق هو مآل الكافرين: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم

---

(١) نظم الدرر: ٩/ ٢٨٨، وتفسير الثعالبي: ٣/ ٢٨٤.

(٢) الكشاف: ١/ ٣٩٦.

مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٧ ـ ٣٩].

ومن السياق ما يكشف عن باطن خفي، وذلك مدرك في حوار نوح ابنه في قوله تعالى: ﴿...يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

إذ يكشف ذلك عن عاطفة الأبوة وشفقتها وحدبها على البنوة، بالتعلُّق بالأمل؛ أن يهتدي الابن فيؤمن ومن ثم تكون نجاته، وعمد نوح عليه السلام لأدوات لغوية في دعوته، كان الغالب عليها القوة والشدة:

ـ تصغير (ابن) تصغير شفقة في قوله: (بني)، إذ جعله كالصغير في كونه محل التعطف والتحنن والرحمة والشفقة.

ـ الطلب (اركب معنا) الذي حمل عرضاً وتحذيراً في دعوة الابن إلى الإيمان[1].

ـ نفي الجنس (لا عاصم اليوم) «المنتظم لنفي جميع

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٢/ ٧٦.

أفراد العاصم ذاتاً وصفة، للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً بالوجهين المذكورين، وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع»[1] وفي ذلك تقييد للدلالة في الخبر تقييداً تاماً.

ـ تفخيم شأن الله الجليل الراحم ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ بالإبهام ثم التفسير، والإجمال ثم التفصيل[2]. على أن الاستثناء المتصل جعل العصمة والرحمة اختصاصاً بالله ﷻ.

وإذا رغب الباحث في الوقوف على تباين مستوى الخطاب الصوتي في (نادى) عند نوح ؑ، فليقرأ خطابه لله ﷻ في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾؛ إذ خلت صورة الخطاب الصوتية من مظاهر الشدة؛ إذ إن (نادى) فيها انزياح عن الصوت إلى إرادة النداء، يقول الزمخشري: «فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: «رب» فكيف عطف (قال رب) على نادى بالفاء؟ قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أُريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ بغير فاء»[3].

---

(١) و(٢) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٠٥.

(٣) الكشاف: ٢/ ٣٩٨.

على أن مما وقفت عليه الملاحظة أن الدعاء في الكرب عند الأنبياء صدر الخطاب فيه بـ (نادى): ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات: ٧٥]، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

ومثل هذه الصورة الصوتية ذات الهتاف الشديد والصوت الجهير في الظاهر، التي تحمل عمقاً نفسياً في الباطن يموج خلف الظاهر ويستتر به، ما جاء في قول الله ﷻ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فالصورة الصوتية التي يولدها الفعل (ونادوا) بشدّته وجهارته، هي جزء من صورة مشهدية ذات سياق وحوار، فأهل النار استغاثوا بالخزنة أن يخفف عنهم العذاب يوماً واحداً بعد المحاجة بين ضعفائهم ومستكبريهم ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٥٠].

«فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا مالكاً وهو عليهم وله مجلس في وسطها (النار) وجسور تمر عليها ملائكة العذاب. . . سألوا الموت، فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة»(١)، ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨]. وزمن الإبلاس (اليأس أو السكوت) فيه «أزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أن لا فرج لهم، ويغوثون أوقاتاً لشدة ما بهم»(٢).

وفي دلالة السياق ما يعزز أن مستوى الصوت في (نادوا) كان شديداً رفيعاً جهورياً عالياً، من ذلك ياء النداء في ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهي للبعيد، تستوجب رفعاً للصوت ومدّاً له، ومنها الترخيم في قراءة علي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ١١٧.
(٢) الكشاف: ٤/ ٢٦٤.

ويحيى والأعمش (يا مالِ) بحذف الكاف، وهو المذهب المألوف في ترخيم المنادى، «إلا أن فيه في هذا الموضع سراً جديداً، وذلك أنهم ـ لعظم ما هم عليه ـ ضعفت قواهم، وذلّت أنفسهم، وصغر كلامهم، فكان هذا من مواضع الاختصار ضرورة، ووقوفاً دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله، القادر على التصرف في منطقه»[(١)].

ومنها الأمر المباشر بصورة تأكيدية غير الصورة المتداولة ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فقد توصلوا إلى الأمر (الطلب) بلام الأمر الداخلة على الفعل المضارع المجزوم عدولاً عن المألوف وتحقيقاً للمطلوب، وهو حصول الفعل (القضاء) مباشرة.

ومن المستوى الثاني: نداوة الصوت؛ حسنه وعذوبته، دعاء زكريا في قول الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم: ٢ ـ ٤].

فالصورة الصوتية التي يولدها الفعل (نادى) صورة مشهدية ذات ظاهر خارجي، وباطن نفسي، فهي بعيدة عن

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني: ٢/ ٢٥٧. وانظر: الكشاف ٤/ ٢٦٤.

الجهر؛ إذ إن النداء فيها كان (خفياً) في جوف الليل، متناسباً في ظاهر الحال مع ضعف الشيخ وهرمه، وفيه عذوبة وحسن؛ لأن زكريا «ناجى ربه في ذلك في محرابه»[1]، وهي ذات أبعاد دلالية نفسية حيث راعى سُنَّة الله في ذلك؛ لأن الإخفاء «أبعد من الرياء، وأدخل في الإخلاص»[2]. وقد يكون إشارة إلى أنه تصور نفسه بمكان بعيد عن حضرة الكبرياء، كما قال الخليل إبراهيم: «أنا الخليل من وراء وراء»[3].

ومثل ذلك يقال عن دعاء زكريا أيضاً ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فالنداء كان صوتاً عذباً حسناً خفياً؛ لأنه طلب قد يبدو في الظاهر للآخر دنيوياً، لكنه في الحقيقة لإظهار دينه وإحياء نبوته، ومضاعفة أجره.

وهذه الصورة الصوتية ذات العذوبة والنداوة والحسن التي يولدها «نادى» نجدها في دعاء أيوب عليه السلام ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فالصورة مشهدية خبرية، ذات إيقاع هادئ، إذا أخذنا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٧٦.

(٢) الكشاف: ٣/ ٣.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ٥/ ٣٢.

بقراءة «إني» بكسر الهمزة، على إضمار القول، أو لتضمن النداء معناه[1]، وعلى ذلك كان «دعاؤه عرضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه، صابراً لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه... ولم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ جزعاً»[2].

ومن المستوى الثالث: في بعد مدى الصوت ومذهبه يمكن الاستئناس بدعاء يونس عليه السلام ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فالصورة الصوتية التي يولدها الفعل (نادى) ذات مفارقات عجيبة، فالصوت محجوب في الظلمات التي قال ابن عباس وقتادة إنها ثلاث: «ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت»[3]، ومجرى النفس من يونس عليه السلام مكظوم محبوس؛ إذ المكظوم هو المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس[4]. والكظم: مخرج النفس[5]، فصوت ندائه بالتسبيح والتنزيه باللسان الموافق للجنان لطيف ضعيف لبعده، لكنه قوي مسموع عند ربه عز وجل، فقد جاء في حديث

---

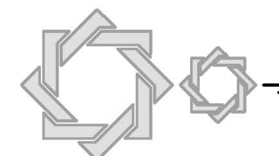
(١) الكشاف: ٣/ ١٣٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٢٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٣.
(٤) فتح القدير: ٥/ ٣١٨.
(٥) اللسان: مادة كظم، ١٥/ ٤٢٤.

أبي هريرة: «قال: فسبح في بطن الحوت، قال: فسمعَتْ الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا! إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة»[1]، فيونس عليه السلام يبذل وسعه في النداء وطاقته في إيصال صوته، غير أن الحواجز تحول دون قوته وعلوّ نبرته، وهو في ضعفه مسموع عند الملائكة، وفي لطف دعائه وصواب خطابه، كان له موقع الرضى من الله ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وهكذا، فإن تكرار حضور كلمة (نادى) في الدعاء كان بمثابة المنطلق الدلالي للصور الصوتية في الدعاء، وقد كان دورها دور المولد، فاكتسب وظيفة جمالية في البنية السطحية التركيبية، فضلاً عن العمق في الرسالة المعنوية، والإشارة التعبدية.



(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٢٧.



«دعا» وتوازنات التركيب والصورة

هذه الكلمة هي المحورية في حقل الدعاء في الخطاب القرآني حيث يتصل الدعاء بالنداء اتصالاً ترابطياً وثيقاً في الدلالة المعجمية والدلالة الانزياحية، فالدعاء كالنداء، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر[1]، ففي الدلالة المعجمية دعا الرجل دعواً ودعاءً: ناداه، ودعوت فلاناً: صحت به... (والدعوة: النداء)، ففي الأثر «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم الناس في أُعطياتهم على سابقتهم، فإذا انتهت الدعوة إليه كبّر؛ أي: النداء والتسمية»[2].

وجاء الدعاء في بعض المواضع من القرآن بمعنى النداء؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠]؛ أي: النداء. وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]؛ أي: نادى، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١٧١.

(٢) اللسان: مادة دعا، ١٨/ ٢٨٣.

شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾﴾ [مريم: ٤]؛ أي: بندائك[١]، وفي قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ [المعارج: ١٧] «قيل: هو من الدعاء الذي هو النداء»[٢].

ويأتي الدعاء في بعض الآيات بمعنى القول؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٥] «أي: قولهم»[٣]، وفي قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٣]، ذهب أبو إسحاق الزجاج: إلى أن «يدعو بمنزلة يقول، ومعناه: يقول لمن ضرّه أقرب من نفعه إلٰه ورب، وكذلك قول عنترة: (يدعون عنتر والرماح كأنها...) معناه: يقولون: يا عنتر، فدلَّت يدعون عليها»[٤].

ومعنى ذلك أن الدعاء بأوزانه التصريفية المختلفة (دعا/ يدعو/ ادع/ ...) يتداخل مع (النداء) و(القول) بعلاقة الاشتمال والتضمن؛ إذ من المعروف أن مفردات الحقل المعجمي الواحد تتواصل بعلائق متعددة من الترادف (عند من يقول به) أو شبهه، والاشتمال والتضمُّن، والجزئية

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز ٢/ ٦٠١.
(٢) اللسان: مادة دعا، ١٨/ ٢٨٥.
(٣) بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٦٠١.
(٤) اللسان: مادة دعا، ١٨/ ٢٨٣.

والكلية؛ لأن معنى الكلمة يعرف بأنه «محصلة علاقاتها بالكلمات (الأُخر) في داخل الحقل المعجمي»[1].

وعلى الرغم من التواصل الدلالي بين كلمات هذا الحقل في المحاورة والخطاب (قال/ نادى/ دعا) تظل مادة دعا ذات خصوصية بدلالة المصطلح العام للدعاء الذي هو العبادة، من حيث القيمة المتغيرة للفظ، والصورة الدلالية المتبدّلة.

فإذا كان النداء الذي هو أقرب الكلمات اتصالاً بالدعاء، يعكس صورة صوتية للعابد في توجُّهه إلى الله من حيث الخفاء والنداوة والشدة، فإن الدعاء يحمل قيماً عقدية استبطانية، ذات تلاحم بصورة سلوكية، سواء منها ما جاء بأسلوب طلبي إرشادي، أو ما جاء بصورة تشخيصية حركية، أو ما كان منها إخبارياً توثيقياً، مما يجعل بينه وبين القول بصوره التصريفية صلات من التضمن والاشتمال على نحو من الأنحاء، لا على التكرار أو الترادف.

فقد كان الإخلاص هو القيمة العقدية الأساسية التي حملها الأسلوب الطلبي للدعاء (ادع) في القرآن، إرشاداً للناس وتوجيهاً لهم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) علم الدلالة: ص٨٠.

﴿ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر: ١٣ ـ ١٤].

وسواء أكان معنى (وادعوه) و(فادعوا الله): وحِّدوه ولا تُشركوا به، أم: اعبدوه، أم: ادعوه واعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء أو العبادة له[1]، فإن الدعاء والعبادة هما أسلوبان في توحيد الله ﷻ، فالدعاء هو العبادة، أو هو مخّ العبادة[2].

ولما كان الإخلاص أساس التوحيد، وجه الله عباده إلى خطابه ﷻ في الدعاء بالأسماء الدالّة عليه بالثناء الموجب لرضاه ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر: ٦٥]؛ أي: بالطاعة والعبادة. قال الفراء: «أي: ادعوه واحمدوه»،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١٨٨، والكشاف ٢/ ٦٩، وفتح القدير ٢/ ٢٢٩.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ١٢٥، حديث رقم ٣٤٣١.

قال ابن عباس: «من قال: لا إلٰه إلا الله، فليقل على أثرها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾»[(١)].

ورتَّب الله على الدعاء بهذه الأسماء الحسنى نجاة للمؤمنين وفوزاً في الآخرة، وذلك من خلال صورة حوارية: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٨]؛ أي: «نعبده ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ المحسن ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ العظيم الرحمة، الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب، وقرئ (أنه) بالفتح؛ بمعنى: «لأنه»[(٢)].

واستثناء عباد الله المخلصين من الغواية والعذاب جاء لازمة مكررة في بعض القصص القرآني؛ إذ لهم الحصانة بإخلاص الإيمان والتصديق، فهم في حيدة عن إغواء الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠][(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٢٩. وانظر: الكشاف ٤/ ١٧٦.
(٢) الكشاف: ٤/ ٤١٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٢٥.

وعن نجاتهم من عاقبة هلاك أقوامهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢)﴾ [الصافات: ٧١ ـ ٧٢]، وبالإخلاص كان فوزهم أيضاً: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾ [الصافات: ١٥٨ ـ ١٦٠]، قال القرطبي: «﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾ فإنهم ناجون من النار»(١).

ولما كان التوحيد هو الأصل الذي فطر الله الخلق عليه ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، كانت الإنابة إلى الله الواحد في الشدائد بالدعاء هي التعبير الصادق، والشاهد العدل على ذلك، وجاء الارتباط بين وقوع الضر والدعاء ارتباطاً تلازمياً في القرآن باستدعاء أحدهما للآخر، بالشرطية الظرفية (إذا) التي تعمل على تحقيق أمرين: أحدهما: استدعاء الفعل الأول للفعل الثاني تلازمياً، والثاني: تهيئة الحدث (الفعل) لما يستقبل من الزمان (إذا وقع الماضي بعد (إذا) في جملة الشرط أو الجواب جعلته دالاً على المستقبل ما لم يدل عليه دليل) وفي ذلك اشتمال لأحوال الإنسان في امتداد الزمان من

(١) اللسان: مادة ضر، ٦/ ١٥٣.

الماضي مروراً بالحاضر وانتهاء بالمستقبل. ويحقق هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢].

وللضر حضور لافت في استيعاب معاناة الإنسان في آيات الدعاء؛ فهو اسم جامع لكل «ما كان من سوء حال وفقر وشدّة في بدن»[١]. وقد حدّه الزمخشري بأنه: «مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل»[٢]، وهو مرض أو فقر أو خوف عند الشوكاني. وهو عند القرطبي منوع بين الحاجة والفقر، أو القحط والجوع والشدة، أو السقم والمرض، أو الخوف والغرق أو البأساء أو الشدة والجهد[٣].

والضرّ بذلك منصرف باتجاه دلالاته إلى بلاء خاص كالمرض والخوف، وابتلاء عام كالجوع والقحط وما أشبه من الشدائد والنوازل، ويستوي الفرد والجماعة في اللجوء إلى الله في دفع ذلك وكشفه.

---

(١) الكشاف: ٤/ ١٢٩.
(٢) فتح القدير: ٤/ ٥١٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٣٢ و١٥/ ٢٣٧ و٨/ ٣١٧.

وجاء الضر معرّفاً في آيات الدعاء فيما كان حاضراً مخصوصاً بحال الفرد الداعي؛ كخوف الغرق في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، والمرض في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وجاء الضر منكراً فيما كان بلاؤه عاماً؛ كالقحط والشدة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، أو فيما كان مغيباً عن الإنسان حدّه ونوعه؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣].

والتنكير في كِلا الحالين فيه دلالة على عظم البلاء، وشدة الجهد فيما وقع أو فيما ينتظر وقوعه، فضلاً عن إحاطة بأنواعه كلها، واستيعاب أجناسه وألوانه جميعاً، على أن الضر منكراً أو معرفاً خاصاً كان أو عاماً، فيه اتصال اشتقاق بالضار النافع من أسماء الله ﷻ اللذين يحسن القران بينهما في الذكر «لأن في اجتماعهما وصفاً له بالقدرة على نفع مَنْ شاء وضرّ

مَن شاء؛ ذلك أن من لم يكن على النفع والضر قادراً، لم يكن مرجواً ولا مخوفاً، وفيه إثبات أن الخير والشر من قِبل الله جلَّ وعزّ»[1]، ومصداقه قول الله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨].

وإلى النافع الضار ينتهي الإسناد بفعل الدعاء، فالرب وإن كان هو المنادى أو المدعو (المفعول به)، وهو المناب إليه في الفعل (نادى ربه/ دعوا ربهم/ دعانا/ تدعون إياه)، فإن الإجابة إليه تؤول، فهو (الفاعل الدلالي) المختص بها بفعل مميز خاص بالضر وهو الكشف، المركوزة دلالته عند المتلقي في الإدراك الواضح بالحس، وسرعة الحدوث في زوال الغمّة، وانزياح الشدّة (فكشفنا ما به/ كشفنا ما بهم/ كشفنا عنه).

ومعنى ذلك أن دال (الرب) يأخذ في تردُّده في جملة الدعاء وظيفة لغوية ثابتة (المنادى/ المدعو)، لكن هذه الوظيفة اللغوية تتحول سياقياً لتأخذ وظيفة الفاعلية في الدلالة، من حيث إنتاج الاستجابة وكشف الضر، التي تتأكد بالفاعلية الصريحة الملتصقة بالفعل (ففتحنا/ فكشفنا/ فاستجبنا/ فنجيناه. . .).

---

(١) شأن الدعاء: ص٩٤.

وفي هذا السياق من وقوع الضر والشكوى به إلى (الفاعل الدلالي) النافع الضار، جاء دعاء نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الدخان: ٢٢]، وجرى أيضاً دعاء أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فكان انتصار الله من قوم نوح بقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢]، فالمغلوب مضطر، والمضطر ممن يستجاب دعاؤه بكشف السوء عنه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]، وكانت أيضاً رحمة الله استجابة لدعاء أيوب: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وبين الكشف وفتح أبواب السماء بالماء، وتفجير عيون الأرض علاقة لغوية بيانية متوحدة الدلالة؛ إذ في كل من الفتح والتفجير كشف ما غاب واختفى. وتوحد صفة الفعل دال على وحدانية الفاعل واطّراد فعله، المختص بالقدرة على تغيير أحوال الدنيا وأهلها.

ويرتبط تكرار (الضر) معجمياً بتكرار الفعل (مس)

نسقياً ودلالياً في عدد من الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ فقد أسند المسَّ إلى الضر إسناداً مجازياً متوحداً في نسق مطرد، ومنح المس خصوبة دلالية حين شُخِّص وأوصل تأثيره وشدّته إلى درجة الجنون الذي يفقد التوازن والقرار؛ إذ المس: لمس الشيء في اليد في أصل الدلالة، ثم استعير للجنون، كأن الجن مسّه، ولذلك يقال: به مسٌّ من جنون[1].

ولما كان اللجوء أو الإنابة إلى الله بالدعاء ينشأ عن الإخلاص، وللإخلاص عند الله سبحانه موقع وذمّة؛ سواء وُجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، ضمن الله تعالى كما يقول القرطبي إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه[2]، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وركوب البحر كان الصورة التي تخيَّرها الله ﷻ للضر والمضطر بانقطاع الأسباب في الشدائد، وقطع القلب عما سوى الله ﷻ، بالرجوع إليه، وعقد النجاة عليه، فقال

---

(١) لسان العرب: مادة مس، ٨/ ١٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٢٣.

تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢](١).

على أن إجابة الله للكافرين والمشركين عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، هي مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، لكنها المواقف والمواقع والمواسم التي يمنحها الله للإنسان للأوبة إليه بالإيمان، والرجعة عن الكفر، ولذلك كان التهديد والوعيد هو ما ينتظر انقلاب حالهم، واختلاف مآلهم؛ يقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥ ـ ٦٦].

---

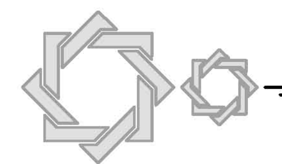
(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٦٣.

ففي الآية الأُولى حصر وقصر، أن البغي وبال عليكم، وفسادكم راجع عليكم، وأن المرجع والمآل بعد ذلك إلى الله ﷻ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي النفوس، فيحاسب ويعاقب.

وفي الآية الثانية جاء التهديد في قراءة من قرأ اللام (وليتمتعوا) على أنها لام الأمر، فقد قيل: «هما لام أمر معناه التهديد والوعيد؛ أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتَّعوا، ودليل هذا قراءة أُبي: (وتمتعوا) قال ابن الأنباري: ويقوي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: (وليتمتعوا) بجزم اللام، قال النحاس: ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد»[1]. وجاء الوعيد أيضاً في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾، فهو تهديد عظيم لهم؛ أي: فسيعلمون عاقبة ذلك وما فيه من الوبال عليهم[2].



(١) فتح القدير: ٤/ ٢٤٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٣.



ثنائيات توازنية

وحمل الإرشاد الإلٰهي والتوجيه القرآني الطلبي في (ادع) عدداً من القيم العقدية التي تتعلق بالحركة النفسية الاستبطانية الداخلية للداعي، ونشاط الظاهرة الخارجية له، وجعلها قائمة على ثنائية من التلازم والتناسب والتناظر، ليستقيم الحال والطلب والمآل، فمن هذه القيم الثنائية:

❐ أولاً: التضرع والخفية:

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]؛ إذ قرن الله ﷻ أمره في الدعاء والتعبُّد به بصفات تحسن معه، وهي الخشوع والاستكانة والخفية[1]، أو الخضوع في خفض وسكون وتمسكن[2].

غير أن (التضرع) ينفتح دلالياً على قيم عقدية سلوكية

---

(١) لسان العرب: مادة خفي، ١٨/ ٢٥٧.

(٢) انظر: لسان العرب، مادة ضرع، ١٠/ ٩٠.

أُخر تجري في مدار جذره الاشتقاقي؛ كالتذلل والتخشع وإظهار الضعف وشدّة الحاجة والفقر، فضلاً عن المبالغة في السؤال، فضَرَعَ فلان لفلان وضَرِعَ له: إذا ما تخشع له وسأله أن يعطيه، والضارع المتذلل، والتضرع: التلوّي والاستغاثة، والضَّرَع: المتهالك من الحاجة للغني، والتضرع: التذلل والمبالغة في السؤال والرغبة، والضارع، الضعيف الضاوي المتهالك(١).

وهيئة السلوك هذه، من المطالب الإلٰهية في إجابة الدعاء؛ لأن الداعي فيها يجانب العدوان، حين يظهر الفقر والحاجة لخالقه، فيكون منسجماً مع ذاته، مؤتلفاً مع فطرته، ولذلك جاء توبيخ الله ﷻ لمن حاد عن الإيمان، فكان مزدوج الشخصية باعتقاده؛ إذ يجري مع فطرته التي تلجأ إلى الخالق البارئ في الشدة، متخذاً هذه الهيئة من الضراعة، لكنه في الرخاء يشرك به عدواناً، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤].

من هنا كانت مخالفة سلوك المشركين في هذه الهيئة

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة ضرع، ١٠/ ٩٠.

للمؤمنين برفع الصوت جأراً؛ إذ جاء وصفهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٣ ـ ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٥].

فالجأر كما قال ثعلب «هو: رفع الصوت إليه بالدعاء»[(١)]، وقال القرطبي: «إليه تجأرون؛ أي: تضجون بالدعاء»[(٢)]، وقال مجاهد: «يضرعون دعاءً، وجأر القوم جؤاراً، وهو أن يرفعوا أصواتهم بالدعاء»[(٣)]؛ بل إن اختيار يجأرون لتصوير حالهم فيه من الدقّة والبلاغة ما ليس في «يصيحون» أو «يصرخون» أو ما أشبه من الدوال المناظرة، ذلك أن الجؤار مثل الخوار كما يقول الجوهري: «جأر الثور والبقرة جؤاراً: صاح، وخار يخور بمعنى واحد»[(٤)]، وفي ذلك حكى الأخفش قراءة بعضهم (عجلاً جسداً له جؤار) [الأعراف: ١٤٨].

فالجؤار بمماثلته للخوار، ومحاكاته لأصوات البقر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٢٥.

(٢) اللسان: مادة جأر، ٥/ ١٨١.

(٣) اللسان: مادة جأر، ٥/ ١٨١.

(٤) اللسان: مادة جأر، ٥/ ١٨١.

والثيران، فيه من التوبيخ لحالهم وهيئتهم في الدعاء؛ ما يجعله مبايناً لضراعة المؤمنين في الدعاء.

وتنفتح دلالة التضرع في الدعاء أيضاً على الابتهال بعلاقة الجزء والكل والتضمن؛ إذ إنه يدور في حقله المعجمي، ومداره الدلالي في شبه الترادف، فالابتهال كما في لسان العرب: التضرع، والابتهال: الاجتهاد في الدعاء وإخلاصه لله، وفي حديث الدعاء: والابتهال أن تمدّ يديك جميعاً، وأصله: التضرع والمبالغة في السؤال، على أن المبتهل في كلام العرب: المسبّح الذاكر لله(1).

غير أن الابتهال وإن كان يفيد هذا التفريع في معاني الدعاء، لا نجده حاضراً في القرآن إلا في مجال اللعن في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]. قال الزمخشري مدركاً العدول المجازي في الدلالة: «وأصل الابتهال هذا (اللعن)، ثم استُعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً»(2).

---

(1) لسان العرب: مادة بهل، ٣/ ٧٦.

(2) الكشاف: ١/ ٣٦٨، والجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٠٤.

وللتضرع علاقة اشتقاقية بالتعرض؛ إذ إن (عرض) مقلوب (ضرع)، فهو أحد تقاليب الاشتقاق الأكبر الستة لما كان أصله ثلاثياً؛ فتجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها على معنى واحد تنعقد عليه، وإن تباعد شيء من ذلك رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه[1]، وقد أدرك الفراء توحُّد المعنى في الاشتقاقين أو التقليبين، فقال: «جاء فلان يتضرع ويتعرض، بمعنى واحد؛ إذا جاء يطلب إليك الحاجة»[2]. وفي الحديث النبوي الشريف ما يعزز هذا التناغم في المعنى؛ إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «**افعلوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء مِن عباده**»[3]؛ ذلك أن للإجابة أحياناً وأوقاتاً، إذا وافقها العبد أصاب الغاية من الدعاء، فالتضرع والتعرض من باب واحد في الدعاء، وهما يعززان معنى إظهار الفقر والحاجة إلى الله ﷻ. على أن معظم الدارسين يسلمون بأن الجناس بأنواعه المختلفة، والتضرع والتعرض لون منه،

---

(١) الخصائص: ٢/ ١٣٤.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤٧٣.

(٣) السلسلة الصحيحة: الألباني، حديث رقم ١٨٩٠.

يعزز الصِّلات المعنوية التي تربط بين الوحدات المعجمية ويحقق بينها التلاؤم[1].

وبمثل ذلك يقال عن الخفية، التي هي معادل التلازم والتوازن في القيمة العقدية السلوكية الأولى للفعل الخاص/ دعا، وللمصطلح العام/ دعاء، فهي الوجه الآخر لفعل الضراعة ومصدره في الآية «تضرعاً»، بل هي الصورة النفسية الداخلية المعادلة للصورة الخارجية، تمتزج بها ولا تنفصل عنها، وقد فهم ذلك بعض المفسرين؛ إذ قال الفيروزآبادي: «(وخفية) ؛ أي: تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون من الخشوع والتذلل»[2]، وأكّد ذلك القرطبي وهو بصدد دفع قراءة الأعمش (تضرعاً وخيفة) بقوله: «وقراءة الأعمش بعيدة؛ لأن معنى (تضرعاً) أن تظهر التذلل، و(خفية) أن تبطنوا مثل ذلك»[3]؛ إذ في هذا التدافع بينهما يتبدى التنبيه إلى تجليات التضادّ في تكامل صورة التضرع والخفية المجموع بينهما بالواو العاطفة في حال من التوازي والتناسب، ذلك أن الخوف عامل ممازج حاضر في مطالب

(١) في سيمياء الشعر القديم: ص٣٥. وانظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص٢٢٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٨.

عقدية وسلوكية أُخر كالطمع ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والرغبة ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

وللخفية في الدعاء اتصال بالصورة الصوتية للداعي، تتمثل بالحياء من الله الذي يجعل الصوت متصفاً بالرخامة ذات الرقّة والسهولة، «قال بعض الأعراب: إذا حسن من المرأة خفيّاها حسن سائرها؛ يعني: صوتها وأثر وطئها الأرض؛ لأنها إذا كانت رخيمة الصوت دل ذلك على خفرها...»[1]، فرخامة الصوت من أدلّة الحياء والحسن «والرخيم: الحسن الكلام، والرخامة: لين في المنطق، ورخم الكلام والصوت رخامة فهو رخيم: لان وسهل، وفي حديث مالك بن دينار: بلغنا أن الله تبارك وتعالى يقول لداود يوم القيامة: يا داود! مجِّدني بذلك الصوت الحسن الرخيم، وهو الرقيق الشجيّ الطيب النغمة، وكلام رخيم؛ أي: رقيق، ورخمت الجارية رخامة، فهي رخيمة الصوت، ورخيم: إذا كانت سهلة المنطق»[2].

وعلى الرغم من انفتاح دلالة (الخفية) على هذا النشاط الداخلي والخارجي للداعي نفسياً وصوتياً، تحمل الضراعة

---

(١) اللسان: مادة خفي، ١٨/ ٢٦٠.

(٢) اللسان: مادة رخم، ١٥/ ١٢٥.

من تعددية المعنى ما يجعل الاجتهاد في الظهور بصورها المنوَّعة غالباً لأحادية صورة الخوف المقيدة.

❐ ثانياً: الخوف والطمع:

وهذه الثنائية التوازنية جاءت أيضاً في نسق الأسلوب الطلبي الإرشادي (ادعو)؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقد انتحى بعض المفسرين منحى التضاد الحادّ في إيجاد العلاقة بين الخوف والطمع، فالطبري يقول: «وأخلصوا له الدعاء والعمل... وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، وإن من كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذبين؛ لأن من لم يخف عقاب الله، ولم يرج ثوابه، لم يبالِ ما ركب من أمر يسخطه الله ولا يرضاه»(١)، وقال أبو جعفر النحاس: «والمعنى خوفاً منه، ورجاءً لما عنده»(٢). وقال ابن كثير: «أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب»(٣).

---

(١) جامع البيان: ٨/ ١٤٧.
(٢) معاني القرآن: للنحاس ٣/ ٤٤.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦.

غير أن القرطبي أدرك التوازن والتوازي والتلازم في الجمع بين الخوف والطمع، حين جعل منهما ضابطين للقوامه في العبادة؛ إذ يقول: «أمر أن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في طريقة استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، فرجَّى وخوَّف... والخوف: الانزعاج لما لا يؤمن من المضار والطمع: توقع المحبوب»(١).

وما يعزز هذه القيمة التوازنية التعادلية في الدعاء على أساس الخوف والطمع، أو الخوف والرجاء؛ ما ورد عن رسول الله ﷺ: «**لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان تريص، ما زاد أحدهما على الآخر**»، وفي رواية: «**لاعتدلا**». وورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حين احتضر: «اللَّهُمَّ إنك أمرتنا أن نعدل بين الخوف والرجاء، والآن الرجاء فيك أمثل»(٢).

ومن نافل القول أن التلازم بين الخوف والطمع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٢٧.

(٢) انظر: حاشية الجامع لأحكام القرآن، رقم ٥، ٧/ ٢٢٧.

والتوازن في قيام الدعاء عليهما، هو منهج الإحسان الذي جاء الثناء عليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، وكان الجوهري قد نبَّه على هذا الفهم وهو بصدد إيجاد العلاقة بين التأنيث والتذكير في «رحمة الله» و«قريب»، فقال: «أراد بالرحمة الإحسان، ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره»(١).

على أن الرحمة الإلٰهية من لوازم الإحسان ومقتضياته، فكان العدول عن «إحسان الله» إلى «رحمة الله» تمكيناً وتوليداً للفاصلة باللازم.

وعلى الرغم من التوازن في الجمع بين الخوف والطمع، يتغلب الطمع على الخوف في هذه القيمة القائمة على الثنائية من حيث انفتاح دلالاته، فالطمع مفتوح على الرجاء ومغلق على اليأس؛ إذ الطمع ضد اليأس، وفي الطمع إظهار العبد فقره إلى الله، وفي اليأس غنى عنه، يقول عمر بن الخطاب: «تعلمن أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى»، والطمع فيه الحرص على التحقيق فضلاً عن استشراف للآتي وصبر على إدراكه وإصابته، يشي بذلك وصف العرب للقطر والمطر حين يأخذ في النزول؛ إذ يقولون عنه: «تطميع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

القطر، حين يبدأ فيجيء منه شيء قليل؛ سُمِّي بذلك لأنه يطمع بما هو أكثر منه، وأنشد الأعرابي في هذا:

كأن حديثها تطميع قطر   يجاد به لأصداء شحاح»[1]

أما الخوف، فدلالته التي ينفتح عليها محدودة في الفزع مباشرة، ومعدودة في العلم والاحتراس على تأول.

❑ ثالثاً: الرغبة والرهبة:

وهذه القيمة العقدية السلوكية الثالثة التي احتضنها الدعاء (ادعو) بثنائية التوازي والتوازن؛ غير أنها لم تأت في نسق الأسلوب الطلبي الإرشادي، بل جاءت بأسلوب الإخبار والتصوير في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

فالوصف بالحال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ والإطراء به ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾؛ سواء أكان عائداً إلى الأنبياء السابقين ممن ذكر في السورة كما يقول القرطبي[2]، أم إلى الأنبياء مطلقاً،

(١) اللسان: مادة طمع، ١٠/ ١١٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٦.

أم كان عائداً إلى زكريا وزوجه ويحيى، فإن فيه إغراءً بالتزام دعوتهم، وتوجيهاً إلى سلوك منهجهم، من خلال صورة حركية نفسية، ولَّدها الفعل (يدعو)، تبدو فيها هيئة الداعي راغباً آملاً تارة وخائفاً مرتجفاً تارة أخرى، خاشعاً متذللاً تارة ثالثة، وقد جاء رصد الوصف والصورة تعليلاً لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾.

وظاهر العطف بين الرغبة والرهبة هو الجمع بين التلازم والتوازن أو التناسب، وقد فهم ذلك بعض المفسرين بقوله: «المعنى: يدعون وقت تعبُّدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمان»[(١)]، إلا أننا إذا نظرنا في انفتاح الدلالة وكثافة المعاني من جهة، وأحاديتها وقصرها على معين من جهة أخرى، جاز القول بأن العطف لم يكن للتشريك بل كان أقرب إلى عطف العام على الخاص؛ إذ في الرغبة معانٍ وأحوال متعددة، ففيها الضراعة والمسألة، والطاعة والطمع، وسعة الأمل. أما الرهبة، فمدار المعنى فيها على الخوف والفزع[(٢)].

وهكذا فإن المتأمل في هذه الثنائيات التلازمية التوازنية

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/٣٣٦.
(٢) انظر: لسان العرب، مادة رغب، ١/٤٠٦، ومادة رهب، ١/٤٢٠.

يدرك: أن النشاط الخارجي في انفتاح دلالة ألفاظها على هيئات وصور مختلفة، غالب للنشاط الداخلي الذي جاء مكثفاً في صورة محددة، فالتضرع ظاهر على الخفية، والطمع غالب على الخوف، والرغائب أحفل بالآمال والمطالب من الرهبة.

ولعله لذلك كان تقدم التضرع على الخفية، والرغبة على الرهبة متراتباً في صيغتين، لكن الخوف تقدَّم على الطمع كسراً لهذا التراتب، ليكون للخوف مكانة متقدِّمة على الرغبة ونحوها، وبذلك يتأكد التوازن بين هذه الثنائيات؛ لأن الرهبة والخوف والخيفة بينها تراسل في الدلالة، وكذلك الطمع والتضرع والرغبة فيها تراسل وتضام واشتمال، فكأن تقدُّم اللفظ الواحد منها هو تقديم لنظائره المتراسل معها.

وفي المرويات المأثورة لمسات إشارية للفارق بين هذه الألفاظ، وهي ذات تعلق بهيئة الداعي وحركة بعض جوارحه، فقد قال ابن عباس في الفرق بين الخفية والتضرع والرغبة: «إذا أشار أحدكم بأصبع واحد فهو الإخلاص (أي: الخفية)، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء (الرغبة)، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه، وظاهرهما مما يلي وجهه، فهو الابتهال (التضرع). وروى قتادة عن

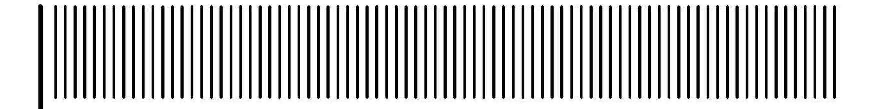
أنس قال: رأيت النبي ﷺ يدعو بظهر كفَّيْه وباطنهما»[1]. وقال خصيف: «الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهب: دفع ظهورها». وفسَّر ابن عطية ذلك بقوله: «وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه، فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه؛ إذ هو موضع إعطاء أو بها يتملك، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك، والإشارة إلى ذهابه، وتوقيه بنفض اليد ونحوه»[2].

والقول بتراسل المعاني وتداعيها بين المصادر اللغوية (التضرع، والطمع، والرغب) يغلق باب التطابق والترادف التام والتكرار، ويحيل المعجم اللغوي في هذه الألفاظ إلى باب التضام بالتناسب دون الاشتراك، وبالتقابل دون التطابق بين الصورة والهيئة، والتكامل في الدلالات دون تكرارها.



(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٧.

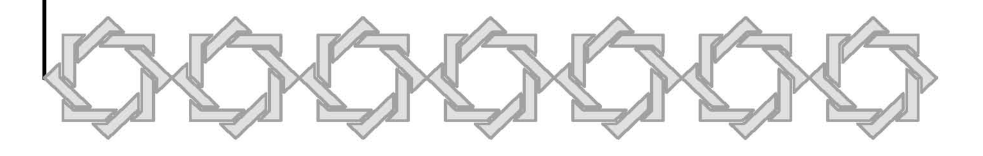
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٦.



ثالثاً

ألفاظ الطلب

- الأمر
- الطلب بلفظ النهي
- التمنِّي





إذا كان لكل سلوك دافع يحفزه؛ وذلك لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، فإن الدعاء سلوك دافعه الطلب، وللطلب حقول يدور فيها، وصيغ يجري الخطاب بها، وأساليب تستنزل الإجابة لها.

وحقول الطلب تجتمع في دائرتين متكاملتين، تفضي إحداهما إلى الأخرى، وهما: الدين والدنيا أو الآخرة والدنيا، وإن غلبت مطالب الآخرة على الدنيا في الدعاء القرآني، فلأن الدنيا في منهج المسلم معبر نحو الآخرة، وشاهد ذلك أن طلب الولد في دعاء إبراهيم وزكريا عليهما السلام لم يكن للمكاثرة والمفاخرة، بل كان رابطاً للدنيا بالآخرة بإعمارها بالصلاح وديمومة شرع الله، فإبراهيم عليه السلام يدعو فيقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١]، وزكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وخصَّ وارثه ووليه أن يكون صالحاً مباركاً ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وأن يكون من أهل الرضى لربه وأبويه والناس في أخلاقه وأفعاله وعلمه وحكمته

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٦]، وكل ذلك رصده زكريا «لإظهار دينه وإحياء نبوته، ومضاعفة لأجره لا لدنيا. . . والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدِّ المسرة والنعمة»[1].

ولا يخرج طلب المُلك في الدنيا عند سليمان عليه السلام عن ضوابط الاتصال هذه بين الدنيا والآخرة، حين دعا ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥]، وذلك ليتمكَّن به من إنفاذ أحكام الله سبحانه، والأخذ على أيدي المتمردين من عباده من الجنِّ والإنس[2]، أو أن ذلك محمول عند العلماء «على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده. . .»[3].

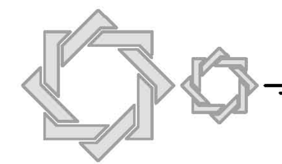
تجدر الإشارة إلى أن الطلب الظاهري للدنيا تقدَّم عليه أمر الدين، فزكريا عليه السلام سلك مسلكاً حسناً حين أثنى على الله بما اعتاده من كرامة إجابة دعائه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٨٠.
(٢) فتح القدير: ٤/ ٤٩٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٠٤.

ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾﴾ [مريم: ٤]، فتشفع إلى الله بنعمه واستدرَّ فضله بفضله[1]، وكذلك فعل سليمان عليه السلام حين قدَّم الاستغفار على استيهاب الملك ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾، وهي عادة الأنبياء والصالحين في تقديم أمور دينهم على أمور دنياهم[2].



(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٠.
(٢) الكشاف: ٤/ ٩٥.



أساليب الطلب

الأمـر

والأمر الذي يحمل طلب الداعي، فيه إشارات دلالية ذات ارتباط بالقيم العقدية في عبادة الدعاء؛ إذ إن فيه توافر مقصدية لدى الطالب في أن يحقق الله (المُخاطَب) مطلوبه؛ لأنه قادر على إنجازه وتحقيقه، ولديه أيضاً الرغبة في الاستجابة لطلبه. فضلاً عن إشارة لغوية دلالية، وهي أن الجزم في فعل الأمر «يعود إلى معنى الإمكان الموجود فيه، فكل أمر هو تحقيق فعل بعد زمان التلفظ، فالمطلوب ما يزال في عداد المشروع أو الممكن، فقد يحدث وقد لا يحدث»[1].

ومن نافل القول وفضوله أن الأمر في صدوره عن العباد في الدعاء، ينزاح عن معنى الأمر الحقيقي الذي وُضع له في الأصل الدلالي إلى الدعاء والرجاء والتوسل، وهو بذلك يعقد شبه حوار اتصالي بين طرفين في ظاهرتين:

---

(١) دروس في البلاغة العربية، نحو رؤية جديدة: ص١٢٠.

الأولى: أمر ينفتح على الرجاء المتوجه به من العبد إلى خالقه، بإجابة دعائه وتحقيق طلبه؛ سواء أكان مؤمناً أم كافراً. أما المؤمن، فالاتصال به يأتي فعلاً محققاً سريعاً بالتعقيب المباشر بالزمن القصير[1]؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤]. وأما الكافر، فالاتصال به جاء بالقول الموبخ له دفعاً لسؤاله، وإبطالاً لرجائه؛ كقوله تعالى في محاورة أهل النار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١١١].

---

(١) فاء العطف تفيد الترتيب والتعقيب، والتعقيب معناه: وجود مهلة مناسبة بين المعطوف عليه، قد تقصر وقد تطول؛ إذ الزمن متروك لكل شيء بحسب سياق الجملة. المعجم الوافي في النحو العربي: ص٢١٦.

والثانية: أمرٌ منفتح على الإرشاد والتوجيه، حيث الاستجابة من العبد باتخاذ الدعاء الموجه إليه منهجاً في خطاب الله عز وجل، وهذه الظاهرة ماثلة في الدعاء التعليمي الذي صدر بالأمر في نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ أو الذي جاء محرراً منه لكنه ملحوظ في سياقه التوجيهي؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ و﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

وسواء كان انفتاح الأمر على الرجاء وتوابعه من التوسُّل والضراعة، أو الإرشاد وتوابعه من التوجيه والوعظ، فإن الدلالة فيه لا نهائية الزمان، فهي مطلقة تتحق في كل وقت وحين، وفي ذلك تحرير للدعاء من قيود الأوقات، وإن كان بعضها أفضل من بعض في إصابة الإجابة والقبول، فالشأن في ذلك متعلق بالعموم والخصوص.

ولما كان الأمر هو الصيغة المدارية في الدعاء، كان مطلوباً من المعاين له أن يصنّفه في مجموعات لبيان المطالب الأساسية فيه، وقد جاءت في دعاء أهل الإيمان على النحو التالي:

❐ أولاً: جعل:

○ فعل الأمر: اجعل/ اجعلني/ اجعله/ اجعلنا.

فعل الطلب	المطلوب	السورة والآية	عدد المرات
اجعل	ـ ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾	البقرة : ١٢٦	١
	ـ ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾	إبراهيم : ٣٥	١
	ـ ﴿لِّيٓ ءَايَةً﴾	آل عمران : ٤١	١
		مريم : ١٠	١
	ـ ﴿لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾	النساء : ٧٥	١
	ـ ﴿لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾	النساء : ٧٥	١
	ـ ﴿لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾	الإسراء : ٨٠	١
	ـ ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾	إبراهيم : ٣٧	١
	ـ ﴿لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾	طه : ٢٩	١
	ـ ﴿لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾	الشعراء : ٨٤	١
اجعلني	ـ ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾	إبراهيم : ٤٠	١
	ـ ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾	الشعراء : ٨٥	١
اجعله	ـ ﴿رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾	مريم : ٦	١
اجعلنا	ـ ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾	البقرة : ١٢٨	١
	ـ ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾	الفرقان : ٧٤	١
المجموع			**١٥ مرة**

○ فعل النهي: لا تجعل/ لا تجعلني/ لا تجعلنا.

فعل الطلب	المطلوب	السورة والآية	عدد المرات
ولا تجعل	ـ ﴿فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾	الحشر : ١٠	١
فلا تجعلني	ـ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾	الأعراف : ١٥٠	١
فلا تجعلني	ـ ﴿فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾	المؤمنون : ٩٤	١

عدد المرات	السورة والآية	المطلوب	فعل الطلب
١	الأعراف : ٤٧	ـ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾	لا تجعلنا
١	يونس : ٨٥	ـ ﴿فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾	
١	الممتحنة : ٥	ـ ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	
٦ مرات			المجموع

❐ ثانياً: رحم:

○ فعل الأمر: ارحم/ ارحمنا/ ارحمهم:

عدد المرات	السورة والآية	المطلوب	فعل الطلب
١	المؤمنون : ١١٨	ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾	ارحم
١	الإسراء : ٢٤	ـ ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾	ارحمهما
١	البقرة : ٢٨٦	ـ ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾	ارحمنا
١	المؤمنون : ١٠٩	ـ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾	
١	الأعراف : ١٥٥	ـ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾	
٥ مرات			المجموع

* ترحم:

○ الطلب بالشرط والجزم.

عدد المرات	السورة والآية	المطلوب	فعل الطلب
١	هود : ٤٧	ـ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾	ترحمني
١	الأعراف : ٢٣	ـ ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾	ترحمنا
١	الأعراف : ١٤٩	ـ ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾	يرحمنا
٣ مرات			المجموع

❐ ثالثاً: غفر:

○ فعل الأمر: اغفر:

فعل الطلب	المطلوب	السورة والآية	عدد المرات
اغفر	ـ ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾	المؤمنون : ١١٨	١
	ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾	ص : ٣٥	١
	ـ ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾	القصص : ١٦	١
	ـ ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾	الشعراء : ٨٦	١
	ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾	الأعراف : ١٥١	١
	ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾	نوح : ٢٨	١
	ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾	إبراهيم : ٤١	١
	ـ ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾	البقرة : ٢٨٦	١
	ـ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾	آل عمران : ١٦	١
	ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾	آل عمران : ١٤٧	١
	ـ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾	آل عمران : ١٩٣	١
	ـ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾	الأعراف : ١٥٥	١
		المؤمنون : ١٠٩	١
	ـ ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾	غافر : ٧	١
	ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا﴾	الحشر : ١٠	١
اغفر	ـ ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾	الممتحنة : ٥	١
	ـ ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾	التحريم : ٨	١
المجموع			**١٧ مرة**

تغفر:

○ **الطلب بالشرط والجزم.**

فعل الطلب	المطلوب	السورة والآية	عدد المرات
تغفر	- ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾	الأعراف : ٢٣	١
	- ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾	هود : ٤٧	١
	- ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾	الأعراف : ١٤٩	١
المجموع			**٣ مرات**

❑ **رابعاً: وهب:**

○ **فعل الأمر: هب:**

فعل الطلب	المطلوب	السورة والآية	عدد المرات
هب	- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾	الصافات : ١٠٠	١
	- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾	آل عمران : ٣٨	١
	- ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾	مريم : ٥	١
	- ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾	الشعراء : ٨٣	١
	- ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾	ص : ٣٥	١
	- ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾	آل عمران : ٨	١
	- ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾	الفرقان : ٧٤	١
المجموع			**٧ مرات**

□خامساً: أفعال كان مجموع ترديدها أقل من خمس مرات:

الرقم	الفعل	الأمر	المطلوب	الآية/ السورة	عدد المرات
١	آتى	آتنا	ـ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾	البقرة : ٢٠١	٣
			ـ ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾	آل عمران : ١٩٤	
			ـ ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾	الكهف : ١٠	
٢	بعث	ابعث	ـ ﴿فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾	البقرة : ١٢٩	١
٣	بنى	ابن	ـ ﴿لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾	التحريم : ١١	١
٤	تاب	تب	ـ ﴿عَلَيْنَآ﴾	البقرة : ١٢٨	١
٥	تم	اتمم	ـ ﴿لَنَا نُورَنَا﴾	التحريم : ٨	١
٦	ثبت	ثبت	ـ ﴿أَقْدَامَنَا﴾	البقرة : ٢٥	١
٧	جنب	اجنبني	ـ ﴿وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾	إبراهيم : ٣٥	١
٨	حكم	احكم	ـ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾	الأنبياء : ١١٢	١
٩	حلّ	احلل	ـ ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾	طه : ٢٧	١
١٠	خرج	اخرجنا	ـ ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾	النساء : ٥٧	١
		أخرجني	ـ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾	الإسراء : ٨٠	١١
	دخل	أدخلني	ـ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾	الإسراء : ٧٥	٤
		أدخلنا	ـ ﴿فِى رَحْمَتِكَ﴾	الأعراف : ١٥١	
		أدخلهم	ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾	غافر : ٨	
١٢	رأى	أرني	ـ ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾	الأعراف : ١٤٣	٣
			ـ ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾	البقرة : ٢٦٠	
		أرنا	ـ ﴿مَنَاسِكَنَا﴾	البقرة : ١٢٨	
١٣	رزق	ارزقهم	ـ ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾	إبراهيم : ٣٧	١
١٤	زاد	زدني	ـ ﴿عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾	طه : ٩٨	١
١٥	شد	اشدد	ـ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾	يونس : ٨٨	١
١٦	شرح	اشرح	ـ ﴿لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾	طه : ٢٥	١

الرقم	الفعل	الأمر	المطلوب	الآية/ السورة	عدد المرات
١٧	صرف	اصرف	ـ ﴿عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾	الفرقان : ٦٥	١
١٨	صلح	أصلح	ـ ﴿لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾	الأحقاف: ١٥	١
١٩	طمس	اطمس	ـ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾	يونس : ٨٨	١
٢٠	عاذ	أعوذ	ـ ﴿بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ ـ ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ ـ ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾	المؤمنون: ٩٧ هود : ٤٧ الفلق : ١ الناس : ١	٤
٢١	فرغ	أفرغ	ـ ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾	البقرة : ٢٥٠	١
٢٢	فتح	افتح	ـ ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ ـ ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾	الأعراف: ٨٩ الشعراء : ١١٨	١
٢٣	فرق	افرق	ـ ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾	المائدة : ٢٥	١
٢٤	قبل	تقبل	ـ ﴿مِنَّآ﴾ ـ ﴿دُعَآءِ﴾	البقرة : ١٢٧ إبراهيم : ٤٠	٣
٢٥	كتب	اكتب اكتبنا	ـ ﴿لَنَا﴾ ﴿حَسَنَةٗ﴾ ـ ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾	الأعراف: ١٥٦ آل عمران : ٥٣	٢
٢٦	كفّر	كفّر	ـ ﴿عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾	آل عمران : ١٩٣	١
٢٧	لحق	ألحقني	ـ ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾	يوسف : ١٠١	١
٢٨	نجا	نجّني	ـ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ ﴿وَأَهۡلِي﴾ ـ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ ـ ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾	الشعراء : ١١٨/ ١٦٩ التحريم : ١١	٢
٢٩	نزل	أنزل أنزلني	ـ ﴿عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ـ ﴿مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾	المائدة : ١١٤ المؤمنون: ٢٩	٢
٣٠	نصر	انصرني	ـ ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩﴾ ـ ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾	المؤمنون :٢٦/ ٣٩ العنكبوت : ٣٠	٤

الرقم	الفعل	الأمر	المطلوب	الآية/ السورة	عدد المرات
٣٠		انصرنا	ـ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾	البقرة: ٢٥٠/ ٢٨٦ آل عمران : ١٤٧	٤
٣٠	هيأ	هيئ	ـ ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾	الكهف : ١٠	١
٣١	وزع	أوزعني	ـ ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾	الأحقاف: ١٥	٢
٣٢	وفي	توفني توفنا	ـ ﴿مُسْلِمًا﴾ ـ ﴿مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ـ ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾	يوسف : ١٠١ الأعراف : ١٢٦ آل عمران : ١٩٣	٢
٣٣	وقى	قنا قهم	ـ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ ـ ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ ـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	آل عمران : ١٦ غافر : ٧ غافر : ٩	٤
٣٤	يسِّر	يسّر	ـ ﴿لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾	طه : ٢٦	١

والإحصاء السابق يفضي إلى أن أفعال الطلب (اجعل) و(اغفر) و(ارحم) و(هب) هي الحقول الأعلى نسبة في ترديد الداعي، والأكثر حضوراً في إلحاح السائل؛ إذ المدار فيها هو غفران الله ورحمته، وتغيير الحال، وتحقيق الآمال الأُخروية والدنيوية.

ومحورية هذه الأفعال الأربعة ومركزيتها جعلت الأفعال الطلبية الأُخر التي جاء الطلب فيها بالشرط والجزم ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾، أو التي جاء ترديدها من ١ ـ ٤ مرات، تدور في مدارها برابط من روابط الانسجام والاتساق؛ كالمطابقة والتضاد والتقابل، أو بالتضام (الاشتمال والتضمين) وعلائقه من

العموم والخصوص، والجزئية والكلية[1].

فالأفعال: أتمم، ارزقهم، افتح، افرق، أرنا، أصلح، اطمس، اشدد، هيئ؛ تدور في مجال (اجعل).

والأفعال: الحقني، قني، قنا، كفر، تب؛ تجري في فلك (اغفر).

والأفعال: افرغ، اصرف، أدخلني، اكتبنا، أخرجني، تقبَّل، أعوذ، آتنا، ابعث؛ تتحرك في مدار (ارحم).

والأفعال: ابنِ، ثبِّت، زدني، اكتب، أوزعني، انصرني، نجِّني، أنزلني، احكم؛ تنداح في دائرة (هب).

ولا مناص من القول إن الأفعال المركزية الأربعة تتداخل دلالات المعاني فيها أيضاً؛ إذ جاء طلب المغفرة في سياق الرحمة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وجاء طلب الهبة في نسق الصيرورة والجعل في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا

(١) انظر: علم الدلالة ص٩٨ ـ ١٠٦، ولسانيات النص ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ ذلك أن العلاقة بين الألفاظ في الظاهرة اللغوية ذات خصائص حركية في التبادل والتقابل والتناظر والاشتمال، تتجاذب فيها الألفاظ وتتداعى وتتدافع في مدارات من التأثير ومجالات من الجاذبية[1]، وهذا ونحوه ذكره ابن جني في باب «تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني» الذي نعته بأنه «حسن كثير المنفعة، قوي الدلالة على شرف هذه اللغة... فالتأتي والتلطف في جميع هذه الأشياء وضمّها، وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة وسرّها، وطلاوتها الرائقة وجوهرها... وهذا مذهب في اللغة طريف، غريب لطيف، وهو فقهها، وجامع معانيها، وضام نَشَرها»[2].

ولما كان اتصال الطالب في الدعاء يقوم في أساسه على الطلب وفعله (الأمر بمستوياته الانزياحية واتجاهاته المحورية والفرعية) من مطلوب منه ذي أسماء حسنى وصفات علا في التلبية والإجابة، جرى فعل الطلب في نسق ذي خصوصية حين دخل في علاقة لغوية ذات تفاعل وتوالد،

---

(١) الضرورة الشعرية، دراسة أسلوبية: ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) انظر: الخصائص ٢/ ١١٣، ١٢٥، ١٣٣.

فأخذ فيها نظامه وإنجازه اللغوي من ظاهرة التجانس والتماثل، إيقاعاً ظاهراً وآخر مقدراً خفياً، فصار الطلب مشتقاً من صفات المطلوب منه (المرجوّ)؛ إذ يستحضر الطالب خصائص الفاعلية والقدرة فيها، بتجانس مذكور ملفوظ، أو تماثل لزومي ملحوظ بالتقدير والتأويل، فيرتبط الأمر بصاحب الأمر قصراً واختصاصاً وتفضيلاً وتوليداً وإيقاعاً، فخرج الطلب بذلك من المطلوب منه (الله ﷻ) عن أحادية الدلالة في اللغة، إلى تعدُّدية في المعنى والمقصود؛ كالتوحيد والتفريد والتسبيح والثناء المقرون بالتعظيم، فغدا الدعاء بذلك شكلاً ونسقاً خاصاً من أشكال الأسلوب المتميز. وبيان هذا النسق في الدعاء جاء في الآيات الآتية:

- ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

- ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥].

- ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٨].

- ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

- ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٩].

- ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

- ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

- ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩] على تأويل لا تذرني فرداً بـ (ورِّثني).

- وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧] على تأويل تقبل بـ «اسمع دعاءنا».

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠] على تأويل رقق بالرأفة والرحمة قلوبنا.

وإذا كانت (وهاب) في الأصل اسم فاعل نقل إلى فعَّال

للمبالغة ذات الاختصاص بأسماء الله ﷻ، فإن اسم التفضيل (خير) مع اسم الفاعل (غافر/ راحم/ فاتح) تؤول إلى المبالغة؛ لتنسجم مع أسماء الله الحسنى (غفار/ رحمٰن/ فتاح).

وفي حمى صفات القدرة والفاعلية الخاصة بالله بالمبالغة والتفضيل والتأويل، يمكن إلحاق أفعال الطلب (الأمر) التي جاءت في غير نسق التجانس والتماثل، بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، ففعل الأمر (اجعل) على سبيل المثال في أصل الدلالة هو من «أفعال الشروع، ناقص التصرف، يأتي منه الماضي والمضارع فقط، ويشترط فيه ما يشترط في أخذ»[1]، لكنه ينزاح عن ذلك إلى أفعال التحويل، فيصبح بمعنى (صير) فينصب مفعولين وينحرف إلى معنى (أوجد) فيكون ماضياً ينصب مفعولاً واحداً. والناظر في آيات الطالب يلحظ أنها جاءت بمعنى (حول وصير) ونصبت مفعولين، ومعنى ذلك أن الدعاء فيها مستحضر للقادر والقدير والمقتدر من أسماء الله ﷻ وصفاته؛ إذ «القادر اسم فاعل والقدير فعيل منه للمبالغة، والمقتدر مفتعل من اقتدر وهو أبلغ»[2].

وكذلك يقال عن مسار بقية أفعال الأمر والطلب

---

(١) المعجم الوافي في النحو العربي: ص١٣٥.

(٢) لسان العرب: مادة قدر، ٦/ ٢٨٢.

وانتهائها تقديراً وإضماراً باسم من أسماء الله تعالى، فالفعل (انصرني) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦ و٣٩] ينتهي مسار الطلب باسم الله ﷻ (النصير) تقديراً وتأويلاً، وكذلك (ارزقهم) في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ترتبط بالرزاق ذي القوة المتين أو خير الرازقين استحضاراً واستدعاءً.

وعلى أساس من تضمين الفعل معنى غيره يمكن تأويل أفعال الطلب والأمر في الدعاء، فالفعل (اطمس) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: غيِّرها، قيل: إنه جعل سكرهم حجارة، قال في اللسان: «وتأويل طمس الشيء: ذهابه عن صورته»(١)، قال القرطبي: «أي: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم»(٢)، فهي بمعنى غَيَّر/ صَيَّر التي تنتهي إلى القادر والمقتدر والقدير.

وكذلك يقال عن اشدد في قوله تعالى: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ إذ إنها متعلقة بالقهار الجبار، فالمعنى: اطبع عليها وقسِّها حتى لا تنشرح للإيمان.

---

(١) المعجم الوافي في النحو العربي: ص١٣٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٧٤.

في ضوء ما تقدَّم يمكن القول إن العلاقات الترابطية التي شكّلت اتساق بناء معجم أفعال الطلب وانسجامه، قامت على التضمين والتضام أكثر من التكرار الذي ابتعد عن التماثلية التطابقية بتغير المطلوب فكراً، وتبدل صفة المطلوب منه تقديراً وتأويلاً.

تجدر الإشارة إلى بعض الملاحظ في علاقات انسجام معجم الأمر في الخطاب القرآني:

ـ **أحدها**: أن فعل الأمر الواحد ـ وإن تكرَّر بلفظه ـ فقد استُخدم في مطالب متعددة، ولا يخفى ما في ذلك من تيسير الطلب على الطالب، باستخدام الفعل الواحد في مسألة حاجات متعددة، ما دام ارتباطها وتوليدها متعلقاً بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، ففي كل حاجة وسؤال يستدعي الطالب صفة جلال أو جمال لله ﷻ.

ـ **ثانيها**: أن تكرار لفظ الأمر في عدد من الخطابات والأدعية، جاء مرتبطاً في كثير من الأحيان بمطلوب آخر، أخرجه عن أحادية الدلالة، وعزَّز فيه صفة الأساسية في الحقل المعجمي، حين صار مركزاً لغيره من المطالب، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]؛ مطلبان، أحدهما: عام، والثاني: خاص، لكنهما متلاحمان في

المطلوب، فطلب الأمن للبلد بسيادة التوحيد والإيمان (الأمن)، يندغم فيه البراءة من عبادة الأوثان بالتوحيد الحافظ للأمن.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٧] كان فعل الطلب ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)﴾ مركزياً لمجموع المطالب، وهي المعرفة بالله وبحدوده وأحكامه، والتوفيق لعمل يلحقه بالنبيِّين وأهل الجنّة، والثناء وخلد المكانة، والمغفرة للأب، والنجاة من العذاب يوم القيامة(١).

ومركزية فعل الطلب (اجعل) ملحوظة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء: ٨٠]، سواء أكانت دلالتها مقرونة بالهجرة من مكة إلى المدينة، أم «عامة في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة»(٢)، وذلك أن الحجة

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١١٢ ـ ١١٤، والكشاف: ٣/ ٣٢٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣١٣.

الثابتة (سلطاناً نصيراً) أساس الصدق في المدخل والمخرج.

ـ **ثالثها**: إن عدم ارتباط الأمر الطلبي بتحديد صفة من صفات الله المرجو، يفتح الدعاء على تمنِّي الاجتهاد في تقدير اسم الله ﷻ المناسب للمطلوب، ليكون فاصلة للدعاء يثرى به الثناء على الله ﷻ، ويحقق إيقاعاً نفسياً ممتعاً مناسباً للطالب، ويتبدَّى صدق هذا الانفتاح في فاعلية إثارة الداعي في إيجاد التناسب معنىً وإيقاعاً، إذا نظرنا في الخطاب النبوي الشريف في الدعاء؛ إذ حرص النبي ﷺ على تذييل دعائه بفاصلة موشحة بأسماء الله الحسنى، تحقيقاً للترابط بين الطلب والمطلوب بتوليده من صفات الله المرجو(١)؛ كقول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلّا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**»(٢).

وقوله ﷺ: «**يا شداد، إذا رأيت الناس يكنزون الذهب والفضة، فاكنز هذه الكلمات: اللَّهُمَّ إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك موجبات رحمتك**

---

(١) انظر: الخطاب النبوي الشريف في الدعاء ص٦٩٠ ـ ٦٩٣.

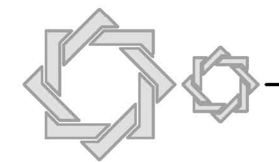
(٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري: ٢/٣١٧، حديث رقم ٨٣٤.

وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وأسألك خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك علَّام الغيوب»[1].

ـ **رابعها**: بقي أن أشير إلى أن إبدال المصدر من فعل الأمر جاء في الدعاء محدَّداً في صيغة واحدة في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، تنبيهاً على استيعابها للطلب بأسلوب آخر؛ إذ إن غفرانك نصب على المفعول المطلق؛ أي: اغفر غفرانك، فهو بدل من فعله، أو على تقدير نطلب، أو أسأل غفرانك.



(١) السلسلة الصحيحة: الألباني، حديث رقم ٣٢٢٨.



الطلب بلفظ النهي

وهذا الأسلوب من الطلب جاء قليلاً في الخطاب القرآني في الدعاء، إلا أنه يحقق لمعجم الدعاء اللغوي خصوصية التضادّ ذات الفاعلية في نظام العلاقات داخل المعجم[1].

والطلب بهذا الأسلوب يحقق فاعلية ثنائية في الدعاء، من حيث الدلالة القاعدية للنهي مع الفعل المضارع أولاً؛ إذ إن (لا) الناهية أو الجازمة تختص بالدخول على الفعل المضارع فتجزمه وتخلصه للاستقبال، سواء أفادت النهي حقيقة أو تنزيهاً أو التماساً أو دعاء[2]. ومن حيث إن معنى السلب في النهي يؤول إلى معنى إيجابي في الطلب ثانياً، فعلى سبيل المثال «لا تحمل علي» تؤول إلى سامحني، و«لا تؤاخذني» تتحوَّل في الدلالة إلى اعف عني... وهكذا.

(١) انظر: علم الدلالة ص٦٨.
(٢) المعجم الوافي في النحو العربي: ص٢٧٢.

وتهيئة الفعل الطلبي في هذا الأسلوب للاستقبال إنما يمنح الدعاء امتداداً في الزمن واستمراراً يتجاوز به الحال إلى المآل، فيربط الحضور بالغياب في أفق الأمل والرجاء؛ كقول الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ فالسؤال والطلب هنا أن الداعين «سألوا إذا هداهم الله ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال فيعجزوا عنه»[1]، ويؤكد الرسول ﷺ في تفسيره لمثل هذه البنية في الدعاء زمن الحضور والغياب والحال والمستقبل؛ في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها إذ قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»، قلت: يا رسول الله! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء! فقال: «**ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه. أما تسمعي قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾**»[2].

ومثل ذلك يقال عن ارتباط الطلب بالنهي لتخليص الدعاء للمستقبل، فيما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٦٧، قال ابن كثير: غريبٌ من هذا الوجه. تفسير القرآن: ٢/ ١٠، وأشار أحمد شاكر إلى صحة الحديث، عمدة التفسير: ١/ ٣٥٥.

﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾؛ أي: «لا تعذِّبنا ولا تُهلكنا ولا تفضحنا، ولا تهنا ولا تبعدنا ولا تمقتنا يوم القيامة»(١).

ومن اللطائف الجديرة بالإشارة هنا أن الدعاء في هذه الآية جاء الطلب فيه في الدنيا ﴿وَءَاتِنَا﴾، وفي الآخرة ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾، فَتَبَايَنَ بناءُ فعل الطلب ومقصديته بين الزمانين؛ لأن الموعود في الدنيا هو النصر على الأعداء «فالدعاء بقولهم: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ مقصود منه تعجيل ذلك لهم؛ يعني: أن الوعد كان لمجموع الأُمة، فكل واحد إذا دعا بهذا فإنما يعني أن يجعله الله ممن يرى مصداق وعد الله تعالى خشية أن يفوتهم»(٢).

ويمنح التحويل في هذا اللَّون من الطلب معنى السلب إيجاباً وثباتاً واستقراراً، ففي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ يؤول المعنى إلى «اعف عنا»، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ يتحول إلى «ثبِّتنا»، وهكذا...، وفي الجدول التالي ما يغطي أكثر الطلب الذي جاء بهذا الأسلوب في القرآن الكريم:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٣١٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ٢٠١.

الآيـــــــة	السورة والآية	التأويل
ـ ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾	البقرة : ٢٨٦	اعف عنا
ـ ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾	البقرة : ٢٨٦	اغفر لنا
ـ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾	البقرة : ٢٨٦	خفف عنا/ ارحمنا
ـ ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾	آل عمران : ٨	ثبت قلوبنا
ـ ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾	آل عمران : ١٩٤	نجنا
ـ ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾	الأعراف : ١٥٠	خلِّصنا
ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾	الأعراف : ٤٧	جنبني إياهم
ـ ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾	يونس : ٨٥	انصرنا عليهم
ـ ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾	الأنبياء : ٨٩	هب لي
ـ ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾	المؤمنون : ٩٤	أخرجني منهم
ـ ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	الممتحنة : ٥	أظهرنا عليهم
ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾	الحشر : ١٠	طهر قلوبنا
ـ ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾	نوح : ٢٦	أهلكهم

واجتمع التضاد مباشراً في بعض الآيات الكريمة، بالسلب والإيجاب، أو النهي والأمر، أو النهي وتأويله بالطلب في نسق واحد، ففي قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، جاء هذا النسق الثلاثي من الطلب بالنهي متبوعاً بما يمكن أن نعدّه تأويلاً له بالأمر والطلب في قوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ﴾.

ومسَّ أبو حيان الأندلسي هذا التضاد بالحال والتأول

في الآيات السابقة بقوله: «وجاءت مقابلة كل جملة من الثلاث السوابق جملة، فقابل: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ بقوله: ﴿وَٱعْفُ﴾، وقابل ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾، وقابل قوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ بقوله: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾؛ لأن من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ العفو، ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم المغفرة، ومن آثار عدم تكليف ما لا يطاق الرحمة، ومعنى المؤاخذة: العافية، وفاعَلَ: بمعنى الفعل المجرَّد»[1].

وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٥ ـ ٨٦]؛ إذ جمع الدعاء بين (لا تعذبنا) و(خلِّصنا) في سياق واحد، حيث إن معنى ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾: «لا تنصرهم علينا»، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو لا تمتحنا بأن تعذبنا على أيديهم. وقال مجاهد: «المعنى لا تُهلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذابٍ من عندك، فيقول أعداؤنا: لو كانوا على حق لم نسلط عليهم، فيُفتنوا، وقال أبو مجلز وأبو الضحا: يعني لا تُظهرهم علينا، فيروا أنهم خيرٌ منا فيزدادوا طغياناً»[2].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٣٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٧٠.

ومعنى ذلك أن قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾ فيه نزوع في الدلالة نحو: (لا تنصرهم علينا) و(لا تمتحنا) و(لا تهلكنا) و(لا تظهرهم علينا)، وقد جاء ذلك مطابقاً ومضاداً تضادّاً سلبياً ليس سطحياً؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ الذي معناه: «خلصنا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾؛ أي: فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة»[1]؛ أي: أن المطابقة والتضاد كانت في البنية العميقة للمعنى المتأوّل وليس في بنية الألفاظ السطحيّة.

على أن تضاداً آخر كان له حضور على مستوى الخطاب القرآني في الدعاء، وذلك بالجمع بين الطلب بالأمر والطلب بالنهي، خاصة اللفظ (اجعل) و(لا تجعل)؛ كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾ ونحوه مما تردّد تكراره بطلب السلب ست مرات؛ إذ يحقق هذا الجمع في معجم الدعاء ـ خاصة الطلب ـ صفة المناسبة والموافقة من خصائص ظاهرة التضاد، التي تجسد الحركة النفسية المتضادة في الإنسان في الإقبال والإدبار، والحب والكره، والإيجاب والسلب،

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٧٠.

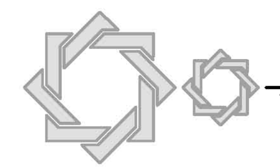
ومن نافل القول أن يشار إلى أن الطلب بالنهي فيه عدول عن الاستعلاء الذي يقصد إليه المتكلم في هذا التعبير الإنشائي، إلى الالتماس والاستعلاء والاستعطاف، من معاني مقتضيات مقام الدعاء وقرائنه التركيبة والأسلوبية.

زد على ذلك أن دلالة النهي في الأصل دلالة سالبة؛ لأنها طلب امتناع عن الفعل، غير أنها تتحول في الدعاء القرآني إلى دلالة موجبة، حين تلتمس الإجابة من الله في التغيير والتبديل.

والطلب بالنهي في الدعاء القرآني في حمى ذلك، يحمل وظيفة انفعالية حين يضع المتكلم الطالب موضع التذلل والخضوع والتضرع في التعبير عن مشاعره وأمنياته[1].

---

(١) انظر: تحولات البنية في البلاغة العربية ص١٢١ ـ ١٢٢.



التمنـــي

وهذا الأسلوب جاء في خطاب الكفار ودعائهم غالباً ظاهراً؛ إذ تتصدر بناء الطلب فيه (لولا)، التي تختص بالفعل المضارع أو ما في تأويله «ولولا؛ أي: هلا، فيكون استفهاماً، وقيل: (لا) صلة (أو زائدة)، فيكون الكلام بمعنى التمني»[(١)]، فتأتي لمعنيين، التحضيض فتكون بمعنى هلا، وهي طلب بِحَثٍّ وإزعاج، أو طلب بمعنى العرض، وتكون حينئذ بلين وتأدُّب[(٢)]. وهي ذات نسق أسلوبي في الخطاب القرآني، قال أبو حيان: «و(لولا) للتحضيض بمعنى هلا، وهي كثيرة في القرآن»[(٣)].

ومن دعاء الكفار الذي جاء بالتحضيض، حكاية قولهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٣٠.

(٢) مغني اللبيب: ١/ ٢٧٤.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٣١٠.

فإذا تجاوزنا الخلاف في مقصود الآية، هل هو وصف للمنافقين أم لقوم أسلموا قبل فرض القتال؟ وأن الظاهر كما يقول أبو حيان: أن القائلين بهذا هم منافقون؛ لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان، ولهذا جاء السياق بعده: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال الشوكاني: «قيل: إنها نزلت في اليهود، وقيل: في المنافقين أسلموا قبل فرض القتال، فلما فُرض كرهوه، وهذا أشبه بالسياق»[2]. ـ إذا تجاوزنا هذا، فإن طلب تأخير كتابة القتال عليهم جاء بـ (لولا) التي هي بمعنى (هلا).

وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤]؛ أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً. ونظير هذا قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧]؛ أي: هلا. قال الزمخشري في ربط التحضيض بالطلب: «ولولا الأولى امتناعية وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية،

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٣١٠. وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٨١.

(٢) فتح القدير: ١/ ٥٤٩.

وإحدى الفائين للعطف، والأخرى جواب لولا (نصب الفعل نتبع بعدها على جواب التحضيض أو التمني)، لكونها في حكم الأمر، من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من وادٍ واحد»[1].

وإذا كانت هذه المطالب ذات تعلق بمعاذير وأمان ذات زمان في الحياة الدنيا، فإن تحضيضاً آخر تجاوز ذلك إلى شطط الكافرين في السؤال؛ إذ حكى الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، فقد سألوا الله الشطط كما يقول القرطبي: «لأن الملائكة لا تُرى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب، والله تعالى لا تُدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار»؛ ولذلك فقد وصفهم الله بالعتوّ، وهو كما يقول مقاتل: «أشدّ الكفر وأفحش الظلم»[2]. وكذلك سأل المنافقون الرجعة عند السؤال بعد الموت ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠]

---

(١) الكشاف: ٣/ ٤١٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٩ ـ ٢٠.

ونظائر هذا التمني كثيرة في دعاء الكافرين في الزمن الآخر عند الحساب، إلا أنه غاب عنه (لولا) في بنائه، وناب الاستفهام عن (لولا) الذي خرج إلى التمني في حكاية قولهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: ١١]، وهذا نظير قولهم: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: ٤٤]. وسواء أكان بناء هذا التمني على (لولا) التي هي بمعنى (هلا) أم على الاستفهام بمعنى (هل)، وسواء أكانت دلالة (لولا) التحضيض أم التمني، فإن تحوُّلاً في الخطاب جرى في بنيته العميقة، حتى انتهى في صياغته إلى هذه البنية السطحية؛ ذلك أن الداعي من الكفار والمنافقين يحمل رغبة داخلية قلبية في النجاة، غير أنها تصطدم بواقع خارجي عسير المنال، أو بموقف شديد المحال؛ كنزول الملائكة، ورؤية الله، والرجوع إلى الدنيا... وما أشبه، والأصل في خطاب هؤلاء في هذه الحال أن تتصدره (ليت) التي هي لتمني المستحيل؛ كما في قوله تعالى، الذي جاء مصوراً لحالهم وأمانيهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: ٢٧]، لكنهم عدلوا عن ذلك إلى خطاب تتصدره (لولا)، بهدف تغليب الحال

الخفي للأماني، وتكثيف الرغبة القلبية لها على الحال الظاهر أو الموقف الخارجي، وتحويله من واقع مستحيل إلى واقع ممكن، وهذا يتناسب معه الدعاء بـ (لولا) و(هل) دون (ليت)[1]؛ إذ في التحضيض حث وإلحاح مناسب للرغبة الشديدة الدفينة، ومضارع لإيهام النفس بالممكن. وكذلك الحال في (هل)؛ إذ فيها «إبراز المتمنى في صورة المستفهم عنه الذي لا جزم بانتفائه، لإظهار كمال العناية به، حتى لا يستطاع الإتيان به إلا في صورة الممكن الذي يطمع في وقوعه»[2].

وبناء على ما سبق من اصطدام الرغائب والأماني القلبية للكفار بواقع الحال المستحيل المنال يوم الحساب، يمكن أن يلحق بهذا التمني مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، على الرغم من أنه يجري في غير ما يراه البلاغيون من وجوب توجيه الأمر إلى

(١) انظر: تحولات البنية في البلاغة العربية ص٩٧ ـ ٩٨.
(٢) مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص) ٢/ ٢٤، نقلاً عن تحولات البنية في البلاغة العربية: ص٩٩.

ما لا يعقل ليكون معنى التمني فيه صائباً؛ ذلك أن الخطاب بالأمر (أخرجنا) انزاح عن وظيفته في طلب تحقيق الفعل إلى وظيفة انفعالية في التعبير عن إحساس المتكلم بالقصور والعجز والخوف والاضطراب، وهي بنية عميقة ملحوظة في ظلال التوسل والرجاء في مسار الطلب، وقد جاءت مرشحات ذلك ومعززاته في: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ و﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

يقول الزمخشري: «يصطرخون: يفتعلون من الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدة، واستُعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته، فإن قلت: هلا اكتفى بـ﴿صَٰلِحًا﴾ كما اكتفى به قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؟ وما فائدة زيادة ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾... قلت: فائدته زيادة التحسُّر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به»[1]. ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨].

على أن ما تجدر ملاحظته أن القرآن الكريم حكى خطاب الكفار ودعاءهم بالتمني فيما كان متعلقه بالحياة

---

(١) الكشاف: ٣/ ٦١٥.

الآخرة، حين مواجهة الحساب والعذاب، وكان ردّ الله لهم تسفيهاً لأقوالهم، وتشتيتاً لأمانيهم، وتقريعاً لمطالبهم بعبارات منوّعة، ليس المجال هنا لاستقصائها واستيعاب القول فيها.

أما مطالب الكفار وأمانيهم الدنيوية، فقد جاء التسفيه لها جامعاً لها في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٤٩ ـ ٥١].

فالإنسان في الآية، كما قال السدي، يراد به الكافر، الذي لا يمل من سؤال السعة في النعمة والمال والصحة والسلطان والعزّ؛ غير أن هذه الديمومة الطالبة، لا تتعلق بحسن الظن بالله، إذا لم يصب الرجاء الغاية لأمر قدّره الله ﷻ، ولذلك فإن حال الكافر في الدعاء لا يعرف الصدق أو القوامة في المنهجية، وإن بدا في ظاهر الحال أنه يمثل حالين ضديين؛ ذلك أن المبالغة والإفراط هي المنهج النفسي المستوعب للفعل (الطلب)، وردّ الفعل على الطلب (الإجابة) باطّراد واستمرارية، فهو مبالغ في دوام الطلب، ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، وهو متكبر مبالغ في استعظام

نفسه إذا أصابه خير الدعاء ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣، فصّلت: ٥١]، وتطرد هذه الحال لدى الكافر إذا ناله السوء ومسَّه الشر، فالمبالغة عنده في جانبين أيضاً:

الأول: كثرة الدعاء ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾؛ إذ العرب «تستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال: أكثر فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء، إذا أكثر»[1]، «وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الإجرام، ويستعار له الطول أيضاً، كما استعير الغلظ بشدّة العذاب»[2].

والثاني: القنوط واليأس الذي جاء التعبير القرآني ممثلاً للمبالغة فيه من طريقين: من طريق بناء فعول (يؤوس قنوط)، ومن طريق التكرير؛ إذ القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس، فيتضاءل وينكسر[3].

بقي أن نشير إلى أن الدعاء العريض مباين للإلحاح في الدعاء الذي جاء الترغيب فيه في الحديث النبوي الشريف: **«إن الله يحب العبد اللَّحوح في الدعاء»** أو **«المُلِحِّينَ في الدعاء»**[4]، من حيث منطلقاته وبناؤه، مع أن كلّاً من الدعاء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٧٣.

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٠٥.

(٣) الكشاف: ٤/ ٢٠٥.

(٤) شأن الدعاء: ص١٤. وأخرج ابن حبان في صحيحه: برقم =

العريض والإلحاح في الدعاء فيهما اتفاق ظاهر في كثرة السؤال؛ إذ إن «ألَحَّ في الشيء: كثر سؤاله، وألَحَّ على الشيء: أقبل عليه لا يفتر عنه»[(١)].

غير أن خلافاً ندركه بينهما في أن ديمومة الإلحاح والتضرع والاستغاثة عند المؤمن شاملة الرخاء والشدّة، في حين إن الكافر ـ كما يقول ابن عباس ـ: «يعرف ربه في البلاء، ولا يعرفه في الرخاء»[(٢)].

والتوازن والتلازم بين الرغبة والرهبة، والتضرع والخفية متطلبان أساسيان، ومنطلقان تأسيسيان في الإلحاح، فضلاً عن أن الإلحاح في الدعاء عبادة فيها الثناء على الله وحسن التوكل عليه، وربط عالم الشهادة بعالم الغيب في توجيه حياة المؤمن واختياره.

والطلب (الأمر) في دعاء المؤمن أحادي الدلالة، مباشر المقصدية، لا يخرج إلى معانٍ ودلالات من إظهار الحسرة والحزن والندم والاستخذاء كما جاء في دعاء

= ٤٠٣، من حديث عائشة رضي الله عنها: **«إذا دعا أحدكم فليستكثر، فإنما يسأل ربّه»**.

(١) اللسان: مادة لح، ٣/ ٤١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٧٣.

الكافرين، لكن التمنِّي الذي جاء مصدراً بـ(لولا) في الدعاء العريض عند الكافرين، نجده مصدراً بـ (عسى) في جانب من دعاء الإلحاح عند المؤمنين، فقد علَّم الله نبيَّه ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٤]، وهو دعاء كما قال الجمهور، مأمورٌ به على العموم دون هذا التخصيص الذي قال به بعض المفسرين: إن تصدير الدعاء بها جاء كفارةً لنسيان الأشياء ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤][1]. ذلك أن (عسى) في خطاب العبد لربِّه من أفعال الرجاء، «ومعناها ترجي وقوع الخبر في الأمر المحبوب، والإشفاق من وقوعه في المكروه»[2]؛ لكنها في خطاب الله ﷻ لعباده واجبة؛ أي: هي للتحقيق لا للرجاء؛ إذ قيل: كل (عسى) في القرآن واجب إلا قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٥]، «وقيل: هو واجب ولكن الله ﷻ علَّقه بشرط، وهو التطليق»[3].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٣٨٦.

(٢) المعجم الوافي في النحو العربي: ص٢٠٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٩٣.

وبمثل ذلك ابتدأ الأنبياء والصالحون دعاءهم، فموسى عليه السلام يسند أمره إلى الله في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢]. قال القرطبي: «وهذه حالة المضطر»[1]، وإبراهيم عليه السلام حين يقول: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨]، «أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوّى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه»[2]، وكان دعاء أصحاب الجنة كذلك في قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ٣٢]، قال ابن مسعود: «إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم، فأبدلهم جنّة يقال لها: الحيوان»[3].

وقد جاء هذا الدعاء في وصية المؤمن وتوبيخه للرجل الكافر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف: ٣٩ ـ ٤٠].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٦٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ١١٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٤٥.

وعلى الرغم من أن مقصدية التمني هي إنشاء إرادة حدوث أمرٍ ما، يظل بين التمني بـ(لولا) والتمني بـ(عسى) فرقٌ دلالي في المنطق والأساس؛ ذلك أن إرادة الشيء لا تعني إمكان حصوله، ولذلك ذهب بعض البلاغيين إلى أن التمني يتعلق بالأمر الممكن والممتنع (المستحيل الوقوع)، في حين يتعلق الترجي بالممكن فقط[1]، ولذلك كان دعاء الكفار مرتبطاً بتمني المستحيل غير الممكن، وكان دعاء المؤمنين بـ(عسى) متعلقاً بالترجي والممكن.

ولما كانت «الإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء»[2]، كان الدعاء الملحاح مخصوصاً بالإجابة المشاكلة للحال بصيغ مختلفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

أما الدعاء العريض، وهو ما كان مصدراً بـ(لولا)

---

(١) دروس في البلاغة العربية: ص١٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/٣٢٦.

أو بالطلب (الأمر) المباشر، فكان اشتكاء، تعقبه الله بالتوبيخ والتقريع والتسفيه؛ كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

* * *

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**.
- **الأصوات اللغوية**، د. عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمّان، ١٩٨٨م.
- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (ت٨٣٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، مجلس إحياء التراث، القاهرة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
- **تحفة الأقران في ما قرئ بالتثليث من حروف القرآن**، لأبي جعفر أحمد بن يوسف الرعيني، تحقيق: د. علي البواب، دار المنارة ـ جدة، ١٩٨٧م.
- **تحوُّلات البنية في البلاغة العربية**، د. أسامة البحيري، دار الحضارة للطبع والنشر والتوزيع، طنطا، ٢٠٠٠م.
- **تفسير البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي (أحمد بن يوسف) (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الجواد وعلي محمد معوض، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- **تفسير التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- **التفسير الكبير** (تفسير الفخر الرازي) للإمام محمد الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، (ت٦٠٢هـ)، ط دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

- **جامع البيان في تفسير القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ)، ط دار المعرفة، بيروت، الثالثة، ١٩٧٨م.
- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت٦٧١هـ)، ط دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني، (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، ط دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٥٢م.
- **الخطاب النبوي الشريف في الدعاء (الإيقاع والتنغيم)**، د. مصطفى عليان، ضمن دراسات إسلامية وعربية مهداة إلى الدكتور فضل حسن عباس، ط دار الرازي، ٢٠٠٣م.
- **دروس في البلاغة العربية**، الأزهر زناد، ط المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، بيروت ١٩٩٢م.
- **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ)، تصحيح الشيخ محمد عبدة ومحمد رشيد رضا، ط مكتبة القاهرة، ١٩٥٩م.
- **سنن الترمذي**، للترمذي (أبي عيسى محمد بن عيسى) (ت٢٧٩هـ)، ط دار ابن حزم، بيروت، أولى، ٢٠٠٢م.
- **شأن الدعاء**، لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، (ت٣٨٨هـ)، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٤م.
- **صحيح مسلم**، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، (ت٢٦١هـ)، بشرح الإمام النووي (محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف)، (ت٦٧٦هـ)، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية**، السيد إبراهيم محمد، ط دار الأندلس، ط١٨٩١م.

- **علم الدلالة**، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- **علم اللغة العام ـ الأصوات**، د. كمال محمد بشر، ط دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي، ت٨٥٢هـ)، ط دار المعرفة، بيروت.
- **فتح القدير، الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**، لمحمد بن علي الشوكاني، (ت١٢٥٠م)، ط دار الخير، بيروت، ١٩٩١م.
- **في سيمياء الشعر القديم**، دراسة نظرية وتطبيقية، محمد مفتاح، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
- **الكتاب**، لسيبويه، (أبي بشر عمرو بن عثمان)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط دار الجيل، بيروت، الأولى.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، للإمام الزمخشري (محمود بن عمر، ت٥٢٨هـ)، ط دار الريان للتراث، القاهرة، الثالثة ١٩٨٧م.
- **لسان العرب**، لابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)، (ت٧١١هـ)، ط مصورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- **لسانيات النص**، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ط المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- **المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها**، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي ناصف النجدي، ود. عبد الفتاح الشلبي، ط دار سزكين، استانبول ١٩٨٦م.

- **مختصر تفسير ابن كثير** (أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت٧٤٤هـ)، اختصار محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١م.
- **معاني القرآن الكريم**، لأبي جعفر النحاس، (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط جامعة أُم القرى بمكة المكرمة، ١٩٨٨م.
- **المعجم الوافي في النحو العربي**، د. علي الحمد ويوسف جميل الزعبي، ط دار الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٨٤م.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، لابن هشام (جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله)، (ت٧٦١هـ)، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة.
- **منار السالك إلى أوضح المسالك**، محمد عبد العزيز النجار، مطبعة الفجالة بمصر.
- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، لحازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٩٨١م.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، للإمام البقاعي (برهان الدين أبي إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط الروحاني، ت٨٨٥هـ)، ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الأولى ١٩٦٩م.



المحتوى

الموضوع	الصفحة

ثالثاً: ألفاظ الطلب

قائمة إصدارات

الوعي الإسلامي

- ❖ القدس في القلب والذاكرة.
- ❖ حقوق الإنسان في الإسلام.
- ❖ النقد الذاتي.. رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية.
- ❖ الحوار مع الآخر.. المنطلقات والضوابط.
- ❖ المجموعة القصصية الأولى للأطفال.
- ❖ المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.
- ❖ الحج.. ولادة جديدة.
- ❖ الفنون الإسلامية.. تنوُّع حضاري فريد.
- ❖ لا إنكار في مسائل الاجتهاد.
- ❖ المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.
- ❖ التجديد في التفسير.. نظرة في المفهوم والضوابط.
- ❖ مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ مقالات الشيخ عبد العزيز بن باز في مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام.
- ❖ موسوعة الأعمال الكاملة للإمام الخضر حسين.
- ❖ علماء وأعلام كتبوا في الوعي الإسلامي.
- ❖ براعم الإيمان.. نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية.
- ❖ الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.
- ❖ الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام.
- ❖ الحوالة.
- ❖ التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس.
- ❖ الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي.

- ❖ الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة.
- ❖ التوفيق والسداد في مسألة التصويب والتخطئة في الاجتهاد.
- ❖ فقه المريض في الصيام.
- ❖ القسمة.
- ❖ أصول الفقه عند الصحابة ـ معالم في المنهج.
- ❖ السنن المتنوعة الواردة في موضع واحد في أحاديث العبادات.
- ❖ لطائف الأدب في استهلال الخطب.
- ❖ نظرات في أصول البيوع الممنوعة.
- ❖ الإعلاء الإسلامي للعقل البشري (دراسة في الفلسفات والتيارات الإلحادية المعاصرة).
- ❖ ديوان شعراء مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ ديوان خطب ابن نباتة.
- ❖ الإظهار في مقام الإضمار.
- ❖ مسألة تكرار النزول في القرآن الكريم.
- ❖ الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، وجهوده في كتابه «تهذيب الكمال».
- ❖ في رحاب آل البيت النبوي.
- ❖ الصعقة الغضبيّة في الردّ على منكري العربية.
- ❖ منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب.
- ❖ معجم القواعد والضوابط الفقهية.
- ❖ كيف تغدو فصيحاً.
- ❖ التنزيل «الوصية الواجبة في الفقه الإسلامي».
- ❖ الفروق الدلالية لألفاظ التكرار في القرآن الكريم.
- ❖ تبصرة القاصد على منظومة القواعد.
- ❖ حقوق المطلقة في الشريعة الإسلامية.
- ❖ الضمان في الحقوق المعنوية والتحفيز التجاري.
- ❖ المذهب عند الحنفية ـ المالكية ـ الشافعية ـ الحنابلة.
- ❖ منظومات في أصول الفقه.

- ❖ أجواء رمضانية.
- ❖ المنهج التعليلي بالقواعد الفقهية عند الشافعية.
- ❖ نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده.
- ❖ دراسات وأبحاث علمية.
- ❖ ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه.
- ❖ التقصِّي لما في الموطأ من حديث النبيِّ.
- ❖ المجموعة القصصية الثانية للأطفال.
- ❖ كرّاسة لوِّن لبراعم الإيمان.
- ❖ موسوعة رمضان.
- ❖ جهد المقِلّ.
- ❖ العذاق الحواني على نظم رسالة القيرواني.
- ❖ قواعد الإملاء.
- ❖ العربية والتراث.
- ❖ النسمات النّدية من الشمائل المحمّدية.
- ❖ اهتمامات تربويّة.
- ❖ أثر الاحتساب في مكافحة الإرهاب.
- ❖ القرائن وأثرها في علم الحديث.
- ❖ جهود علماء الحديث في توثيق النصوص وضبطها.
- ❖ سيرة حميدة ومنهج مبارك (الدكتور محمد سليمان الأشقر).
- ❖ أبحاث مؤتمر الصحافة الإسلامية الأول.
- ❖ نظام الوقف والاستدلال عليه.
- ❖ من أمالي العلّامة أبي فهر محمود محمد شاكر على كتاب الأصمعيات للأصمعي.
- ❖ من أمالي العلّامة أبي فهر محمود محمد شاكر على كتاب الكامل للمبرد.
- ❖ الترجيح بين الأقيسة المتعارضة.
- ❖ التلفيق وموقف الأصوليين منه.
- ❖ التربية بين الدين وعلم النفس.
- ❖ معجم الخطاب القرآني في الدعاء.

